قصص

الضحى العالي

يوسف أبو رية



الضحى العالي

يوسف أبو رية

فهرس

خبز الصغار .... - ٥ -
طفل الطين .... - ١٠ -
الفارس .... - ١٤ -
الصبي والعانس .... - ٢١ -
الضيف .... - ٢٧ -
المحاولة .... - ٣٩ -
ليل النهر .... - ٤٩ -
التجلي .... - ٥٥ -
الضحى العالي .... - ٦٣ -
المفتاح .... - ٧٤ -
ظل الموت .... - ٧٨ -
بعد الرحيل .... - ٨٤ -
المنسية .... - ٨٧ -
بقعة دم .... - ٩٤ -
مكان للنوم .... - ٩٨ -
عباءة الليل .... - ١١١ -

في البدء كان النهر يمشي وحيدا فـي الأرض السـوداء، وماؤه حين كان لا يجد النبت الذي يشربه يعود إلى النبع، أو يندفق في بحر الملح، وفي مساء ليلة غاب عنها القمر حدث النهر نفسه قال: اخلق من طيني قرية أسكن إليها، يكون لـي منها أبناء وحفدة، يخضرون جدب الأرض التي حولي.

وفوق تل يطل على حافة النهر، تخلقت دار مـن طـين، عمرها رجل قُد من طمي أخضر، وامرأة نبتت ذات صـبح من تحت إبطه الخشن. جاب الرجل المكشوف السوءة جهـة المرق وجهة المغرب، وسمى النهر باسمه، وعـرف اسـم الشجر والطير والحيوان، وقال: ها قد عرفت كل الأسـماء، فلاسم قريتي التي أسكنها:

وخط بأصبعه على التراب الناعم: "الجزيـرة البيضـاء" وقال لنفسه: ذلك أني سأدهن داري بجيـر أبـيض، كـذلك سيدهن أبنائي وحفدتي دورهم بالجير الأبيض.

خبز الصغار

البنت التي جلست بجوار الفرن شيدت بيتهـا بحجـرين كبيرين وخشبة عريضة، أنامت الرحى وقالت: هـي الفـرن الذي سأرمي فيه أرغفتي.

جلبت الماء من الطلمبة القريبة، عجنت به الطـين الـذي سوت منه أرغفة تقافزت بين يديها في الصـفيحة الصـدئة، والولد أعطاها ورقتين قال: اشتري لنا غداء من السوق حتى أعود من الشغل.

وذهب إلى هناك، تحت الشجرة التي تغطي سطح الـدار، وتنام أغصانها على السور المطل على الشارع الكبير.

أمسك العصا وقال للأولاد: انحنوا على شـجر القطـن، وإياكم أن أعثر على "لطعة" تغفلها عيونكم.

وقال لنفسه: هكذا كان الخولي يقول للأنفار، لكن المهندس الذي جاءه راكبا فرسا، ضربه في وجهه لما عثر على الدود يأكل الورقة.

جاءت البنت إليهم وقالت: ما رأيكم لـو خبزنـا بعجـين حقيقي.

رد الولد الواقف: أنا أحضر الدقيق.

ورد الواد المنحني: وأنا أحضر الكبريت.

لما دخل من الباب المفتوح على الحوش، رأى أمه جالسة تغني، ظهرها إلى الباب، ووجهها إلى الوابور تنظف ثمـار الكوسة.

غافلها وفتح باب الحجرة المقابلة، المعتمة، نافذتها مسدول عليها الخيش، وبقعة نور ضئيلة تسقط من منور السطح على كيس الذرة، و "قفة" الدقيق كانت في الركن مفـرودا عليهـا جلباب أبيه القديم، رفعه بحذر، ومد قبضته يملأها ليفرغهـا في حجره.

حين مرق من ضلفتي الباب واجهته أمه عند الزير تمـلأ الكوز، سألته عما كان يفعل بالحجرة. قال: كنت أريد لقمـة من المشنة.

وأسرع إلى الحوش حيث وجدهم يقيمون الفرن بأحجـار صغيرة، يلصقونها بطين قطع من بين عنق الطلمبة.

والبنت كانت تجمع أعواد الحطب والقش مـن حظيـرة الدجاج، نصفه بجانب الجدار، ثم جلست تخلط الدقيق بالمـاء في صفيحة قديمة، تضربه بكفها الصـغير حتـى صـارت له فقاقيع تبقبق طاردة الهواء المحتشـد، كانـت تـود لـو

تسمع له ضربات تهز أركان الدار، كعجين أمها الذي تتكفئ عليه من أول الليل حتى مطلع الفجر، وقالت البنت لنفسها: العجين لن يخمر، ولن ينتفخ حتى يندفق على جوانب الصفيحة لأني لم اسم عليه.

حركت شفتيها باسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأت الفاتحة التي حفظتها عن أبيها.

صنع الأولاد للفرن فتحة كبيرة يدلخون منها النار، وفتحات صغيرة ضيقة يخرج منها الدخان، في النهاية مددوا الصفيحة الصدئة على سطح البناء، ودعموا منافذها بالطين والحصى.

وفكروا: في رمضان سنأتي بالكوز المثقوب من أسفله، لنرش عليه العجينة خيوطًا رفيعة لتكون الكنافة، أو توزع العجينة قطعا صغيرة لتكون القطايف.

مسح الولد خيط المخاط الذي سال على شفتيه، وهيأ عود الثقاب الذي يحكه بجانب العلبة فتخرج النار، لتنتشر قوية في القش وأعواد الحطب، لما دسها في الفتحة الكبيرة اختنق اللهب وخرج منه الدخان كثيفًا يسيل له دمع العين.

قال الولد: دعني أنفخها.

جمع الهواء في شدقيه، ودفعه بقوة على الجذوات الخابية، فاستيقظ لهيبها منتشرا في الوقيد، قربت البنـت الصـفيحة، براحتها رفعت قطعة العجين، أرادت أن تهزها في الهـواء، كما تفعل الخبازة لكنها اندلقت مختلطة بالتراب.

نثرت الدقيق على الخشبة العريضـة، ورمـت القطعـة الطرية، ثم راحت تدفعها ما بين كفيها تحلـق فـي الهـواء لتسقط على الخشبة مفروشة مسترقة، رمتها علـى الفـرن، ورفعت خصلة الشعر التي سقطت على عينها، أمالوا الوجوه يترقبون، وانتظروا حتى انتفخت قطعة العجين، وانقلب لونها حتى صارت مصفرة.

قالوا: ها هي تستوي كخبز حقيقي. سنصـنع لكـل منـا رغيفًا، ندع الفرن لنخبز عليه كل يوم أرغفة نأكلها، ونوزع منها على أولاد الجيران.

انتفضوا ـ فجأة ـ على الصوت الذي خرج من النافـذة: يا أولاد الأبالسة.. هكذا تشعلون النار لتحرق الدار.. انتظروا حتى أذبحكم جميعا.

جمع الولد الرغيف في كفه، وبقفزة كان يجري أمـامهم، والدجاج من حولهم يجري فزعا، دخلـوا الحظيـرة، ومـن

خصاص الباب كانوا يرقبون القدم الكبيرة التي سوت البنـاء الصغير بالأرض، واليد تطوح الصفيحة على سطح الدار.

جلس الولد على الأرض ليقسم الرغيف، أعطى لكل واحد لقمة، مضوا يلوكونها بتلذذ، قالت البنت: والله كأننا غمسـناه بعسل النحل.

طفل الطين

الشجرة ذات الظل فردت أوراقها الخضراء فوق البقرة التي تلف في الساقية، والولد الذي يرقد تحت الجذع، يخطط في التراب، قسمة أحواضا وجعل وسط الأحواض قناة واسعة تنتهي بدائرة هي التي سيدلق فيها ماء الكوز من الترعة الكبيرة، امتلأت الدائرة، وتدفق الماء في القناة المنحدرة، وتوزعت بين الخطوط الكثيرة يشربها التراب بعطش حقيقي.

وتوزعت بين الخطوط الكثيرة يشربها التراب بعطش حقيقي.

وعرف الولد أنه لا التراب ولا الماء يثمران الزهرة الخضراء، لأنه لم يضع البذرة، فجمع الأرض التي أعدها كتلة من الطين، عجنها بالماء، وصاح في البقرة لتدفع الماء لأبيه هناك، أعلى الحقل ولأنها لا تخضع لصباحه، ضربها بالفرقلة ضربتين على كفلها.

"هكذا تسرع فيجري الماء لأبي، يروي أرض القطن.."

قال لنفسه حين عاد لعجن الطين وأكد:

"يباع القطن فنخلع ملابسنا لنرتدي الجديدة، ونقلع النعال المفتقة لنلبس الجديدة".

خلق من الطينة جاموسة بأذنين وقرنين، وأربعة سـيقان بحوافر، جاء بين فخذيها الخلفيتين ولصـق كـرة بأربعـة بروزات، وعرضها للشمس، قال: هذا ضرعها، لكنه لن يدر اللبن.. أمي تحلب جاموستنا الكبيرة، أنال قطعة القشدة علـى الرغيف حين تضربها في الإناء الواسع، ثم تذهب بها إلـى السوق كل خميس..."

ضغط الطينة بأصابع يده، فصارت الجاموسة بلا شكل..

ردد الموال: "منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه".. وقص ـ بالصوت المنغم ـ قصة الولد الذي قاتل الأجنبي والظالم، فكانت الطينة في يده على هيئة خفير بلبدة، وشارب طويـل، على كتفه علق البارود، وعرضه للشمس، لكن الخفير سـقط على وجهه فطمسه التراب، عجن الطينة في يده، ودار خلف البقرة ثلاث دورات يحثها ويضربها.

أقام بالطين جدارا، ألصق به جدرانًا ثلاثة، وجعـل بهـا فتحتين صغيرتين، وفتحة كبيرة، قال لنفسه: هذه هي الغرفة الأولى، سأقيم بيتًا بأربع غرف وردهة وزريبة ومرحـاض، وسأحفر أمام بابه قناة تجري فيها المياه، وأغرس على حافتها

الغصن؛ فيكون الشجرة الظليلة، التـي تقعـد تحتهـا أمـي والجارات.

حين انتهى من البناء، سوى الطينة بيده، فكانـت بـرأس وساقين ومن جنبيها صنع ساعدين في الخصرين.

بالعصا الرفيعة شق في الوجه عينـين، وثغـرا باسـما بغمازتين وستر الرأس بالقماشة الملونة.

هذه هي العروسة صاحبة الدار التي سترقد على السـرير في غرفة النوم، وفي جانب من الغرفة وضع الحجر الـذي فرشه بباقي القماش.

"ولكن العروسة لا بد لها من عريس..".

أكد لنفسه وبقطعة أخرى من الطين، صنع جسدا بـرأس كبير، به شارب ممتد وحاجبان كثيفان، ونقش فـي الصـدر ليصنع الشعر الغزير.

أنام العروسة على الحجر.

شعر بالدم الهادئ ينساب ما بين الجلد والعظم.

فتمنى لو عاد ضئيلاً كنملة، ودخل مـن البـاب الضـيق للبيت، ودخل الغرفة ليتمدد إلى جوارها على الحجر الوثير.

لكنه في النهاية، أدخل الرجل الذي صنعه، مـددة علـى طرف الحجر، وراح يتأملها بحب، وعزم على أن يدع البيت والعريسين لضوء الشمس، ويحرسهما مـن أقـدام الكبـار والصغار.

الفارس

لما طلب أبوه ذلك منه، شعر فجأة بالرجولة تملأ كيانـه، وعبر الردهة، تعثر في الحطب، لكنه لم يقع كما لا ينبغـي للرجل أن يقع، وهش الدجاج المتكاثر عند باب الزريبة، فتح هيكل الباب المرقع بالخشب القديم، وحين وقعت عينه علـى الحمارة في مذودها، شمر جلبابه حتى لا يتسخ بالروث الذي تكثفت رائحته الخصبة في أنفه، ضربها على كفلها، وانحنى يفك القيد، لكنها رفست رجلها بقوة في الهواء، وما كان مـن الممكن أن يسكت أو يستغيث، زعق بخشونة لم تفـت علـى الحمارة تكلفها، فلم تخضع إلا بالعصا التـي انهالـت علـى جلدها، انتهز الاستكانة المضمرة، وفك القيـد الـذي عـلاه الوسخ.

عند الباب.. هيأ أبوه الغبيط على ظهرها، وعقـد رأسـه بالمنديل الكبير وقاية من عين الشمس التي تضـرب رءوس الصغار.

أوصاه بالسير تحت ظل الشجر، ودس في جيبـه ربطـة القروش.

قال: ستجده ضخما بحجم خالـك، إلا أن وجـه الآخـر بشارب يحوط شدقيه، سيسألك عن اسمك، فاذكر له اسـمي، وإن طلب علامة، أخبره أنك كنت معي أول أمس على مقهى المدينة، وإن لم يكن بالدار فاسأل عنـه زوجـه، ولا تعـط القروش إلا للرجل.. فإن أعطاك الشيء، فاحرص عليه كما تحرص على نفسك.. وهذا القرش لك لتشتري به حلاوة من بقال قريتهم.

لما استوى أمامه الطريق، أدخل قدميه في فتحتي الغبيط، ضرب الحمارة على رقبتها ضربتين، فانتفضت لتلقيه عـن ظهرها، غير أن الولد تشبث بهـا وأحـس مـن لحظتهـا أن الحمارة تضمر له الشر.

لما وصل (الهدار) قال لنفسه: ها هنـا تنتهـي ترعتنـا، يتقاطع معها المصرف المـوازي لسـكة الحديـد ويتفـرع طريقان، الأول ممتد إلى المدينة، والآخر يصعد إلـى بلـدة الرجل، بين الطريقين يتكاثر الشوك الشيطاني الذي تسـكنه الفئران. دخل بداية الطريق، فتجمع الغبـار حـول حـوافر الحمارة، وانتشر حتى وصل وجهه، عن يمينـه المصـرف يغطيه الريم، والطريق الضيق بباطن شريط القطار، وعـن

شماله كانت أرض (الإصلاح)؛ فتذكر أن أباه كـان يمتلـك حمارة ركوب كانوا يدعونها "حمارة الإصلاح"، رآها وهـي تموت لما أكلت من ورق القطن المسوم، ورآها وهي نافقـة في ماء المصرف، فبكى عليها.

رأى التراب مكوما على حواف الأرض، قال: هنا ترقـد الثعابين والحشرات القاتلة.

ولما قفزت الحمارة فجأة لتعبر القناة المحفورة في الجسر، لعن ـ في سره ـ إهمال الفلاحين.. هكذا يفعل أبوه حـين يسخر من زرع جيرانه.

على البعد البعيد رأى الدخان يتصاعد من التراب كأفـاع أهلكها العطش، في هذه اللحظة، شعر أن عين الشمس تقصده هو بالذات، فقد تسلطت على قفاه وظهره، حتى طفح جسـمه كل العرق.

على طريق القطار رأى نقطة سـوداء تكبـر كالمـارد، وسمع صفيرا، عرف أن القادم قطار الظهيرة، وهو أحمـر، حين يمر يكون وقت الغداء، فتخرج الأنفـار مـن خطـوط القطن، تفرغ الديدان في النار، تجتمع في ظـل الصفصـافة حول مناديل الخبز والجبن والخيار المملح.

اهتزت الأرض لعجلات القطار، والمسافرون كانوا فـي النوافذ وعلى الأبواب، أشار لهم بيده، وقـال لنفسـه: إنهـم يستعدون للنزول في محطة المدينة، ليركب غيرهم.

كثيرا ما فكر في السفر البعيد، في الخطوط بين الأنفـار، أو حين يجمع ورق الأذرة الأخضر للماشية يرى نفسه فـي الحلة الأنيقة، ويرى وجوها لا يعرفها إلا أنها نظيفة بملامح متناسقة، تبتسم له، وتقول: ها هو الولد الأعجوبة، في السفر إلى المدن ذات الشوارع المسفلتة والبيوت العالية، لا بد مـن المعجزة، ما هي؟ لا يدري، قد تكون القدرة على ضرب فتية حي بكامله، وتكون الجميلة بالشرفة فتشير إليه: أرسلوا فـي طلب هذا البطل.

عاد الطريق للصمت الذي لا يحركه غير حوافر دابتـه، تأملها حين أرخت أذنيها، وشعر بأنه بعيد، وتمنى لو يعود.

لما اقترب صف أشجار (العبل) الذي يقطـع المصـرف ليعبر المزلقان، عرف أنه سيجد هناك "عكاشة" بسترته الثقيلة الخضراء، لا يقوم إلا بفتح البوابة أو يغلقها.

وأكد لنفسه: سألقي عليه السلام، تماما كما يفعل الرجال، ها هو العم "عكاشة" فوق المصطبة، وتحت الظل يجري من

تحته ماء رائق لترعة لا يعرف اسمها. كـم مـن حكايـات سمعها عنه، هو الذي تسعى إليه عفاريت المقتولين بالقطار، ألفها كما ألف كلابه الراقدة تلك، رأى وابور الماء فتأكد لـه الطريق الواسع الممتد إلى القرية المنشودة. هذا الطريق ينام ترابه تحت رشاش الماء.

قبل أن يدخل بين الدور رأى الصـنابير يغتسـل بمائهـا صبية كشفوا عن عوراتهم، قال: القرية تنعم بالمـاء، بينمـا بناتنا يذهبن بالحمير ليملأن من مكان بعيـد. ورأى رجـالا يرقدون على الأبواب، بالقرب منهم، ترقد الخراف والـدجاج والجاموس، ورأى شوارع ضيقة، ومنازل بطابقين، وبقـالاً في دكانه يطرد الذباب، فتذكر القرش، بعد أن حصل علـى الحلاوة ألقاها دفعة في فمه، زامت عليه الكلاب، فرفع رجله على ظهر الحمارة.

كان الباب ضخما ومسودا، يربطه بالحائط مزلاج خشبي متين، وفوقه نصف دائرة كبيرة يتوزع فيها الخشب ليتجمـع حول الدائرة الصغيرة ترقد بينهما حمامة تهدل.

ربط الحمارة في قضيب النافذة، تهب منها رائحة ظـلام ونوم ورطوبة عطنة، كانت ساكنة بسريرها المفروش بملاءة

عليها بقع دم باهتة، وحصيرها اللامع المنقـوش والـدولاب المركون على الجدار، تجمعت عليه أشياء كثيـرة، ضـرب الباب ضربة هينة.

خرجت العجوز بالوجه المحطم داخل الطرحة البيضـاء، وحدثته بالفم الخالي من الأسنان، قالت: ما تريد يـا صـبي؟ قال: أنا فلان بن فلان جئت أسأل عن صاحب هـذه الـدار، أدفع إليه قروش أبي، ليعطيني طلبه الذي لم يبح به.

قالت: أخبر أباك إن صاحب الدار قد قبضت عليه شرطة المدينة صباح هذا اليوم، وأخبره أن العجوز أم صاحب الدار تطلب إليك أنت صاحب المكانة أن تتوسط إليه لدى مـأمور المدينة.

وفي الطريق قال لنفسه: أبوك أعطاك القـروش تـدفعها للرجل مقابل شيء لا تعرفه، والرجل قبضت عليه الشرطة.. فهو خطير.. وللشرطة عيون في كل أرض، ورجال يحملون البنادق المعمرة، وأنا طرقت باب رجل كرهتـه الشـرطة، والليل بدأ خطوته في هذه القرية، وسينتهي في قريتي أسـود كوجه العبيد.

لكز الحمارة في جنبيها، فانـدفعت فـي الطريـق بـين الأشجار، عند بوابة القطار، تذكر عفاريت "عكاشة" التي تفك قيد الجاموس، وتدلق آنية اللبن في دواليبهـا، وراح يتسـمع الأنفاس تلهث خلف ظهره، لا ينظر إليها فيحرقـه الشـرر المتطاير من الأفواه والعيون، بينما تكاثرت الأشـباح أمـام الحمارة، وعلى جانبي الطريق تجري بسرعة، وتنظر إليـه بخطواتها المنتظمة، والبنادق على أكتافها، وفي اليد سكاكين مطفأة لا تلمع، لو يرى وجه القمـر، لـو يـرى ذبـالات المصابيح عبر طاقات الدور المعتمـة لكنـه رأى النقطـة السوداء التي تنمو وتستطيل كلما اقتربت منـه، لمـا صـار الوجه في الوجه رأى الشارب الكثيـف المتـدلي، والعيـون المظلمة كعيون البندقية ذات الروحين لطمتـه اليـد القويـة فصرخ الصرخة التي اهتزت لهـا فـروع الشـجر، ومـاء المصرف، وتراب الطريق.

الصبي والعانس

(أ)

الصبي الصغير جالس بين النسوة تحـت شـجرة السـنط العالية في هذه الظهيرة التي هجعت فيها الكلاب تلهث علـى بقع الماء الرطبة.

النسوة كن يثرثرن، ويقطفن أوراق الملوخية الخضـراء من عيدانها، يكومونها في الغربال.

نظر إليها تمضغ العود الريان الخالي من الورق، تتمـدد خلف ظهرها ضفيرتان ثعبانيتان تنبت جذورهما تحت منديلها الأبيض الملون بورد صغير.. أحمر وأصفر، تتـدفق قنـاة صدرها الثمين بين ضفتي الثديين، بعد أن تنقطع الرجل من الشارع، وتغلق الأبواب على ظل الدور الرطبة تبقى السنطة فارهة ووحيدة، تداري نفسها بظلها السخي.

تنهض أمه من بين النسوة معلنة "أن العفاريت قد قيلت.. هلا قيلت"، يصمت هو العارف أنها ستعارضها "ليرقد معـي أنا الوحيدة".

فتمشي النسوة في فوضى دمه الحار.

تذهب صاحبة الملوخية بغربالها، ينفضن ثيابهن لتسـقط العيدان على الأرض تنقنق فيها خراف الجيران وجـديانهم، تغلق من خلفها بابها ذا الصوت الحزين المـلول، الصـبي الصغير في أثرها، في غرفتها التي تتسع للحصير والدولاب الذي تفوح منه رائحة الدسم تعلق الشاش الأسود على النافذة المضيئة.

يجلس في الركن على الوسادة الملونة بـدم البراغيـث، يرقبها وهي تطرد الذباب من الباب إلى الردهة، ليتكوم على جدران الزير وحصير الجبن.

بعصفورة الخشب الكبيرة تغلق الغرفـة، يلحـظ (محمـد الجدع) التي خطها يوما بطباشير المدرسة.

تتمدد متأوهة من الركبة والمفاصـل، تعطيـه ظهرهـا العالي، وتأمره بالنوم الساكن فيرقد دون صوت.

(ب)

يا هذا الصبي.. اعرف أنك لا تنام، تظل عيناك مفتوحتين على صورة الرجل البدوي ذي الشارب النابت مـن اللحيـة الكثة.

قالت لأمك يومها: ابتعتها من السوق بعشرة قروش قـال البائع إنه الإمام "علي".

أنت الآن في انتظار يدها التي تسـحبها إلـى جلبابـك، فسروالك، فموضع بين فخذيك يوقظ النشوة النائمة في جسمك الصغير.

ها هي - بالفعل - يدها تصب النار بين فخذيك، بعد أن تفرك أصابعها لبعض الوقت، ستلتصق أنت بها، وتمد بالتالي يدك إلى جلبابها الثقيل تسحبه بنعومة، حتى تلمس الخشـونة المبهرة.

حينئذ تكون هي في الاستسلام المطلق، فما عليـك إلا أن تعبث في الجسد المنساب بأفخاذه المرتفعة الممتلئة بالشـحم، بالثديين الراقدين ككلبين أليفين، والسرة - فوق الهضـبة - يحلو لسبابتك الدوران فيها، تقوم بكل هذا. فقط لا تدع لعينيك تأخذانك إلى عينيها المسرورتين تحت كوعها.

وفي تمددك على الهضبة العالية، إيـاك والسـقوط عنـد الاهتزازة المزلزلة، تحوط بيدك الـدقيقتين الخصـر الـذي لا نهاية له، وتدع لنفسك المتعة الطفوليـة التـي لا يسـبقها شيء، ولا تنتهي إلى شيء.

وتحمل ضغطها المحموم الذي لا تقابله بفعل، وحين تزفر بتنهيدتها الحارة ينبغي أن تهبط من تلقاء نفسك وإلا أسقطتك إلى جوارها كعلقة ميتة.

وإن حاولت مرة أخرى ستضربك بكوعها في جنبك، نـم باستسلام حتى يبرد جسمك.

ولا تطل النظر في وجه الشيخ ذي اللحية لأنه سيرعبك.. لا تفكر كثيرا في السيف الذي سيحضره يوما ليقطع رقبتـك عقابا لك، فيسيل دمك ساخنًا على صدرها، أو في أمك التـي تكون قد دخلت بطريقة ما، وتجدك في نومتـك الملهوفـة، فتصفع وجهك أو تكوي جلدك بالنار.

ولا في السر حين يرفع عنه الشاش الأسود لعيون صـبية الشارع عبر قضبان النافذة فترجم بالحجارة.

سيذهب ذهنك فقط في محاولة لتذكر المرة الأولى، فلـن تجدها ـ (هل تتذكر رضاعتك من ثدي أمك؟ وهل تتـذكر البول الذي كنت تدره في قماطك؟).

هكذا وجدت نفسك معها في ليلـة مـن الليـالي، أو ذات قيلولة كالتي تضطجع فيها الآن، كما وجدت جسـمك الـذي تكون بلبن أمك أو ملامحك التي ورثتها عن آبائك وأجدادك.

وإن كنت تذكر أمها التي ماتت، العجوز بشعرها الأبيض المشوب بصفرة كصفرة الدخان على شارب جدك.

وتذكر يوم أن حملتها الخشبة إلى المقبرة البعيدة.

يومها قالت أمك: المسكينة ستعيش وحيدة..

بعدها كان من السهل على ذهنك الصغير ألا يفاجأ حـين يعثر على جسمك ممـددا علـى أرض غرفتهـا، وتعلقـت بحصيرها الذي ينطبع على لحمك أكثر من تعلقـك بسـرير أمك.

وتندهش (لماذا هذه المرأة بلا رجل؟.. أليست امرأة مثل أمك؟ فلماذا لا يكون لها رجل كأبيك؟).

وكانت تقول للنسوة ولأمك: هو عريسي..

وكنت تخفض رأسك خجلاً.. أو تفر بعيدا.. لأنك تتـذكر فعلة الأمس، وتعجب من هذه المـرأة الملفوفـة بالطرحـة البيضاء، والتي يحترمها الناس، ويقولون عنها: عين الكمال والعقل.

وتكون غير ذلك معك، ترفع جلبابها حتى الرقبة عن جسد شمعي يحتاج منك لألف فعل، وتقف حياله دون فعل، بينمـا هي حين تلقي بك على هضابها المرتفعة، تثور وتنتفض.

الضيف

-١-

لما طرق علينا الباب، قامت أختي وفتحـت لـه، وأمـي جاءت من آخر الدار، مسحت يدها المبلولـة فـي طـرف طرحتها، وسلمت عليه، فتحت باب حجرة الجلوس، وأدخلته، ثم طلبت مني أن أصعد الكنبة لأفتح الشباك المطـل علـى الحوش، غمر الحجرة ضوء شديد، وبقعة الشـمس سـقطت على الصورتين المعلقتين على الجدار.

سألته عن أمه وأخواته البنات قال: الحمد لله.

وأختي كانت قد جرت إلى الطاحونة، لتنادي على أبـي، الذي جاء على وجهه وهدومه غبـار الـدقيق، سـلم عليـه بحرارة، وسأله عن أبيه والجماعة، أراد أبي أن يجلس إلـى جواره على الكنبة فزجرته أمي "هدومك وسخة.. قم غيرها" وأشارت إليه بعينها.

تهامسا في الردهة، ثم أعطـاني أبـي نقـودا لأشـتري كوكاكولا، وعاد ليرحب بالضيف "أهلا وسهلاً.. شرفت". لما

عدت، وجدت أمي وأختي فوق السطح، وسـمعت صـوت الدجاج يكاكي، ودبدبات الأقدام على السقف.

دخلت حجرة الجلوس حاملاً الصينية، وكنت حريصا على الزجاجة الطويلة المنتصبة، حتى لا تنقلـب علـى الأرض. ودخلت من الباب بجنب.

كان أبي جالسا إلى جواره بهدومه المتسخة، قـام ليأخـذ مني الصينية المرتعشة، وقدمها للضيف.

كان وجهه لامعا، وحذاؤه كان يبرق في قدميه. ولباسـه فاخرا نظيفًا، وشعره الناعم المنسق ينام بنظام على رأسه.

قلت في نفسي: هكذا أبناء المدن.

وتمنيت أن أكون مثله، وأكدت أنني سـأطلب مـن أبـي قميصا وبنطلونًا كاللذين يلبسهما الضيف، وعزمت أن أغسل شعري كل صباح..

استأذن أبي ليبص على الطاحونة، وقال إنه سوف يعـود حالاً، وطلب مني أن أجالس الضيف.

كنت أريد أن يحادثني عن المدرسة لأقول له إنني (الألفة) وأن اسمي مكتوب على لوحة معلقة على جدار الفصل وإلى جواره: رائد الفصل، وكنت أود أن أحضر لـه كراريسـي،

لأريه نمر المدرسة، ولأقول له أنني غاوي رسم، ولي رسوم كثيرة معلقة على حوائط المدرسة، ولكنه فقط سـألني عـن سني، ثم فاجأني بالسؤال عن نسوان بلادنا.

فحكيت له عن الولد (علي) الذي قام بالليل، وتسحب مـن السرير يضاجع بنت خاله التي تنام عندهم، وكيف أنه حـين خلع سروالها بالت عليه، وقالت له إنني.. أنا نفسي، أنام مع نسوة كثيرات من الجارات، وإنني نمت مع (أم محمد) علـى سريرها المسدول عليه ناموسية، وهي التي طلبت ذلك، لأن زوجها كان سهران يروي أرض القطن.

وسألني عما إذا كنت قادرا على إحضار (أم محمد) هنـا في دارنا، فكذبت، وأخبرته أنها ليسـت بـدارها الآن، فقـد ذهبت إلى دار أبيها منذ الفجر.

لما عاد أبي مرة أخرى، رحب به وقال: زارنـا سـيدنا النبي: وسأله: الوالد بخير؟. قال: الحمـد لله.. كلهـم تمـام، وطلب الضيف أن يقوم برحلة إلى الغـيط، يـرى الـزرع، ويقضي يوما في الشمس.. فاستدار أبـي إلـي وقـال خـذ الحمارة.. وفسح الأستاذ، على أن تعودا على الغداء.

عبرنا الدار إلى الحوش، رفعت البردعة من على الفرن، وتحاشيت الدجاجتين المذبوحتين، ترفرفـان وتنثـران الـدم حولهما.

سحبت الحمارة من الزريبة المظلمة، المسقوفة بالجريـد والقش، وثبت البردعة على ظهرها، وركب الضيف، وركبت أنا أمامه، لنخرج من البلد، إلى طريق المصرف الطويل.

- ٢ -

كانت الأرض التي نزرعها تمتد مـن وراء دور العزبـة إلى أرض الإصلاح البعيدة، على رأسـها سـاقية وجـرن يحوطه سور مشقق، ومصلى تنام عليها الشـجرة العجـوز، وعلى جانب الجرن، الدار ببابها القديم، ونوافذها المخلعـة، في جذع الشجرة عقدت مقود الحمارة، واتجهت إلى الـدار، قلت له: هذه الدار عشنا فيها عامين.

رفعت القفل الأسود الثقيل، ودخلنـا الردهـة المسـقوفة بالسماء، قلت له: نستريح قليلاً.. بعدها نتجول في الزرع.

وقلت: كانت الدار مسقوفة، سقفها كان مرفوعا على جذع شجرة كبير، وكما نسمع مدة العامين صوت "القراضة" فـي قلب الجذع، وقال أبي يومها: إنها القراضة الملعونة، سنرفع الجذع الكبير ونبدله بقضيب حديد، ولكن الجذع لم يمهلنـا، قمنا ذات صبح نفتح باب غرفة النوم، فلم ينفتح، كان السقف قد ملأ الردهة، ولـم نشـعر بسـقوطه، ومـن سـتر الله، أن "السهارة" كانت مشتعلة طول الليل، لم تصل نارها إلـى السقف، لأن سقوطه أطفأها.

لو اشتعلت، كنا متنا وسط النـار، بعـدها حلفـت أمـي ألا تعيش في هذه الدار أبدا، وقالت لأبي نضيع ولادنا هدرا، وألححت أنا وأختي على أبي؛ حتى وافق على تـرك هـذه الدار، لنعود إلى البلد.

تركني الضيف وراح ينظر إلى داخل الحجرات.

قلت له: أما هذه فكانت حجرة الجلـوس، فرشـتها أمـي بثلاث كنبات، خاصة وأن لها بابا خارجيـا، كـان بإمكاننـا استقبال الضيوف دون أن يدخلوا من الباب الكبير.

وكنت أريد أن أحكي عن أيامي فيها، ولكنه سد فمي بكفه، ولما راح ينظر في الحجرة التالية، قلت: أما هـذه الحجـرة فكان بها فرن، وهذه آثاره كما ترى، كنا نقضي فيه الشـتاء، كانت أمي كل مغرب توقد الفرن، وتسـد منافـذ الحجـرة، لنجتمع كلنا فوق قبوه، وكان أبـي يسـتقبل.. أدار وجهـه المكشر، وقال: أنت تتكلم كثيرا. فتصلبت في مكاني، وتركته يجول في باقي الحجرات، حتى انتهى إلى الزريبة الممتـدة بعرض الدار، ثم خرج إلى الجرن.. وقف على كومة التراب يبص على الأرض من تحته، خرجت إليه، وسألته: نمشـي في الزرع؟

كنت أرغب في تعريفه بأنواع النبات المزروع، وأحكـي له عن جيران الأرض وعن أيام الدودة، وسهراتي في الخص أيام زرعة الخيار والطماطم، وعن الذئب الذي يسـعى إلـى الحقول ليلاً ليبث الرعب في قلوب الرجال، وكنت أسـتطيع أن أقول له: إنني لا أخاف الذئب، وكنت أود أن أكلمه عـن ذئاب كثيرة، سمعت بها من الفلاحين.

نزل عن كومة التراب، وأمسك كفي، سحبني إلى مـدار الساقية، وسألني عن دور العزبة التي تقع تحـت بصـرنا.. فذكرت له أسماء أصحاب الدور، سألني عن أعمالهم، فقلـت له: كلهم فلاحون ما عدا (عبد العلـيم) فهـو متطـوع فـي الجيش.. وسألني: وهل يسكن هنا؟.. قلت: له حجرة في دار أبيه الكبيرة. وسألني: متزوج؟ قلت: زوجته مـن المدينـة، تلبس الروب المزركش بالورد الكبير، وتعقص شعرها تحت منديل مزين بالترتر، وهي خياطة تخـيط الهـدوم لنسـوان العزبة، وللسانها لهجة لا تعرفها النسوان هنا.

استند على كتفي وقال: ولكنها لا تظهر..

قلت: ربما تعمل داخل الدار فهي لا تذهب إلى الغيط..

وسألني عن باقي النسوة، فذكرتهن جميعا، خـبط بطنـي بلطف، وسألني عن أجمل واحدة فيهن، قلت (وهيبة) البدوية، بنت (سليم العرباوي) وهي رغم جمالها لم تتـزوج، فالبـدو لا يزوجون بناتهم لفلاحين، وأمها (عالية) لها اتصال بـالجن وتقدر أن تزوجها أحسن رجل في الدنيا، وهي تقول: إنها لن تزوج (وهيبة) إلا لموظف من أبناء البدو يسكن المدن، ولكن كل الفلاحين هنا يحبون (وهيبة) ويرغبونها زوجة، وهي تدل عليهم، تسرح بغنماتها مع أبيها من الصبح حتـى المغـرب ولا تكلم الرجل الغريب.

نزلنا عن مدار الساقية، وجلسـنا فـوق سـور الجـرن، وسألني: لكن في العامين اللذين عشتهما هنا.. أكيد سـمعت عن علاقات خفية.. فحكيت له عن زوجـة شـيخ العزبـة، وعلاقتها بـ (أبو طبيخ)، وقلت له هي امرأة نحيلة سـوداء جافة، تعمل خبازة، لكنها تهتم بمظهرها، فهي تعقد منـديلها على جنب، لا تفارق عينيها الكحلة، وتقول أمي: إنها تـتكلم باليد والحاجب، وشيخ العزبة عجوز أعـور لا يكـف عـن الكلام يفض النزاعات بين الفلاحين، ويصلح بـين الرجـل وامرأته، ويدخل في كل مشكلة، فهو دائم التجوال وواجباتـه

كلها من خارج داره، ويشرف على الأنفار في أيام الـدودة، ويسجل محاضر المخالفات للفلاحين، و (أبو طبيخ) صعيدي حل بالعزبة، له زوجة بيضاء كالشمع، وبنات بيض يعملـن معه في حقله الضيق على شريط القطار، وهو مهتم بالنحل، له خلايا يخرج منها العسل كل ربيع، وهو طويل فارع قوي، صوته خشن يهز العزبة حين ينادي على زوجه أو بناته حين يكن بآخر الغيط.

وقد سمعت من الناس أنها تطبخ له الحمام كـل ظهـر، وتنسحب خفية من وراء الدور، ولا تمشي في طريـق، بـل تخترق الزرع حتى تصل إليه في أرضه وينامان معـا فـي خص القش، تحت شريط القطار، وسمعت أنهم عثروا عليها مرة في حقل الذرة، وقد خطفوا سرواليها، ولكن شيخ العزبة زمجر في وجه الرجال، وسب أمهاتهم، وقال: إنهم يشـنعون على زوجته، لأنها برقبة نسوانهم، وحكيت عـن (وحيـدة) و (مكاوي) وكيف عثروا عليهما يوما عريانين فـي القنـاة الجافة وسط الزرع، ولما سألني عن (وحيدة)، قلت له: هـي زوجة (مكاوي).

فقال: اسكت.. أنت كثير الكلام.

وسألني: نقدر نزور شيخ العزبة.

قلت: لو كان أبي معنا.

وقلت: هو صديق أبي، يزوره في الطاحونـة، وكثيـرا ما يأتي معه ساعة الغداء، ولما كنا نسكن هذه الـدار، كـان يقضي معنا ليالي الشتاء، فوق الفرن، ويقص علينا حكايـات كثيرة.

قال: اسكت.

فسكت، أدار لي ظهره ثم قام يمشي في الجـرن، وقـف ينظر إلى الدور.

سألته: نتجول في الزرع؟ قال: اسكت.

وفجأة عاد إلي وسألني: لم ربطت الحمارة خارج الـدار؟ وطلب أن أربطها على مذود الزريبة، سحبت الحمارة إلـى الردهة.. ورفعت عنها البردعة، شددت باب الزريبة المرقع بقطع الخشب، وربطتها على مذودها الفارغ، وعدت إليه.

قال: ابق هنا.

-٣-

قضى أبي صلاة العشاء بالدار، افترش المصلى أمامنـا، وكنت أنا والضيف جالسين إليه، وسمع تراتيله، ليختم الصلاة وسلم ذات اليمين وذات اليسار، قام يلم المصـلى، قـال لـه الضيف "حرما" فرد عليه "جمعا.. إن شاء الله" ونادى علـى أمي، لتعد العشاء.. وجاء صوتها من الداخل: "جـاهز" ثـم دخلت علينا أختي بصينية، بعد أن فتحت الضلفتين وضـعت الصينية على منضدة بوسط الحجرة، وعادت بالقلة في طبق، حملق الضيف في وجهها، فارتعشت عيناها، وسـألت أبـي إن كان يريد شيئًا، فأمرها بأن تجعل أذنها معنا، قد نحتاجها وأشار إلى الضيف: تفضل.

كان على الصينية طبق قشدة، وجبن وطعميـة وحـلاوة طحينية وخبز محمص، شمر أبي كمه وردد البسملة بهمس، ورددها الضيف بالصوت العالي، بعد العشاء شربنا الشـاي السخن، وقام أبي لينام، استأذن من الضيف وقال: أنتم شباب تقدرون على السهر، ودخل حجرته بوسط الدار، كذلك دخلت أمي وأختي الحجرة المواجهة، وأغلقنا البـاب وبقيـت أنـا والضيف في حجرة الجلوس صامتين، لا نتكلم، حتى طلـب

النوم، وصحبته إلى حجرتي، فخلع قميصه وارتدى جلبـاب أبي الفضفاض، وسحب البنطلون من أسفل، أطفأ النور وتمدد إلى جواري، تنهد براحة، وسألني: كيـف تقضـي ليلـك؟ فأجبته: في المقهى المفتوحة أبوابه على المزلقـان، فهنـاك نشرب الشاي، ونتفرج علـى فـيلم التليفزيـون، ونتسـلى بالسوداني واللب، أما الرجال فهم يتحلقـون إلـى جوارنـا، يلعبون الطاولة والدومينو، ويدخنون الحشـيش، فـي أيـام الدراسة أذاكر ولا أسهر في المقهى إلا ليلة الجمعة، دفعنـي بيده حتى صدمت بالحائط، وقال: نم.. نم. فنمـت، وكنـت لا أريد النوم.

في صمت الليل انتبهت من نومي علـى اليـد المتـوترة العرقانة تفك أزرار البيجامة وتجول فوق قلبي المنتفض.

المحاولة

بعد آذان العصر، تركت الشوارع التي نامت فيها ظـلال الدور، واتجهت إلى الطريـق الأسـفلت لأعبـر الكـوبري الصغير وأسير على شاطئ الترعة التي تدور من بعيد حول البلد، فأذهب إلى الجبانة، هناك الكافورة العالية التي ترمـي ظلها على مقبرة الجد، على أول الجبانة رأيت الساقية القديمة بقادوسها الصدئ وخشبها الذي فيه السوس، طلعـت علـى مدارها، ونظرت إلى البئر الجافة، غاصت منه المـاء، فلـم يتبق من أثرها إلا اخضرار الريم، ركنت على سور البئـر وحاورت نفسي: أأسير من طريق الترعـة أم مـن طريـق المصرف؟، فأنا أخاف من شوارع الجبانة ومـن أسـوارها المهدمة التي يطل منها الشجر الذي يطن بين أوراقه الذباب الأزرق الكبير.

لما رأيته من بعيد استأنست به، واخترت الطريق، كـان حافي القدمين، وذيل جلبابه بارز من الفتحة الجانبية، تظهـر سيقانه المشعرة مشدودة العضلات تحت ثقل الدلو، كان ينقل الماء إلى حفتين أمام الشاهدين الكبيرين، ينبت فيهما صـبار محوط بسور من جريد الأقفاص، قلت لـه: سـلام علـيكم،

رد السلام وسألني: على فين؟ قلت: احفظ النصوص في ظلة الكافورة عند مقبرة جدي.

نظر من الرأس إلى القدمين، ثم اقترب ليطبطب على صدري قال: الله يعينك.

لما وصلت مقبرة الجد وقفت فاردا كفي، ورحت أردد الفاتحة بهمس ووجدٍ شديد، واقتربت من شاهده المعمم، وكلمته، قلت له: يا جدي.. لم أعد أذهب إلى دارك، فأخوالي قد دب بينهما الشجار، الخال الأصغر استولى على الدار وطرد الكبير الذي أسكن عياله حجرة بدار أصهاره وسافر ليجمع الفلوس التي تشتري له قطعة أرض يبني عليها دارا جديدة، يا جدي.. أمي تبكي عليك وكل ليلة تقرأ لروحك الفاتحة، وتراك في المنام راقدا بقميصك الأبيض على سرير من الحرير الأخضر تحت تكعيبة العنب، وحين تقترب منك، وتبكي، تملس بيدك على شعرها، وتأمر الأولاد الذين يرفرفون حولك بالأجنحة الشفافة، فيجمعون لها العنب، وتمسح لها دموعها بطرف قميصك، وتقول لها: خذي.. خذي العنب للأولاد.

انتبهت على وصوت قدمين تدوسان الورق الجاف المنثور بين المقابر، كان هو، يقبل مبتسما ومظهرا، أسنانه الصفراء بين شفتيه الغليظتين اللتين ينبت حولهما شارب كثيف مشتبك بشعر الذقن الخشن، كان يجنف بطرف الجلباب الذي تركـه ينزل ليستر سرواله البفتة ...، وظلـت الكرمشـة رافعـة الجلباب عن الأقدام، جاس إلى جواري فوق المصطبة، وقال: جدك الشيخ عبد الله؟ قلت: آ.. قال: ونعم النـاس، وسـأل: وأنت ابن مين من الأولاد؟ قلت: أنا ابـن بنتـه. قـال: آ.. ما شفتش جدك لما كان شيخًا للخفراء؟ قلت: لا.

تنهد تنهيدة طويلة، ومد يده يخرج العلبة الصـفيح مـن صداره، وراح يضع التبغ في الورقة الخفيفة وسألني: تدخن؟ قلت: لا.. قال: جدك كان صاحب أبي.. وأبوك كان صاحبه، وسألني: أنت لا تعرفني؟

قلت: لا.

ضحك ضحكة طويلة. انتهت بكحة أدمعت عينيـه، مـد إصبعيه وعصر جانب العينين وقال: أيام بعيـدة، وسـألني: عندك كام سنة؟

قلت له: أذاكر الإعدادية. قال: ما شاء الله.

ودلك فخذي بنعومة حركت دبيبا خفيفًا في دمي، انتظرت أن يرفع كفه، ولكنه لم يفعل، وحين نظـرت إليـه بحـرج، واجهتني عينه الجريئة، تنظر إلي بابتسام خبيث.

انتفضت العضلات تحت سخونة كفه، فزحـزت سـاقي لتنفلت من قبضته: رفع كفه وأمسك بها السـيجارة الملفوفـة وقدمها إلي، قال: خذ نفسا. رددت بحسم وبخوف: لا أدخن. قال: دخنت الجوزة وأنا أصغر منك. فلم أرد.

وبدأ يحكي عن أبيه، قال إنه تاجر القطن الشهير الذي لم تعرفه أيامي، وإن كان يعرفه جيل أبي، كان ثريا جدا، يملك الدار الكبيرة المسورة بسور عال، تطل منه أشجار المـانجو والجوافة التي تظلل حديقة واسعة في مدخل الدار، وتكعيبـة العنب، تحتها الطلمبة وسط الحوض، ماؤها يـرد الـروح، والمضيفة الواسعة المفروشة بكنب، وأخوته وأخواته وأمـه الطيبة التي لا ترفع الطرحة البيضاء عن رأسها. كانت تلقى الاحترام من الجميع، ويدعونها "الحجة.." برغم أنها لم تحج، وأبوه الرجل النزيه كان يرتدي المعـاطف الكشـمير علـى الجلابيب الصوف، وطربوشه الأحمر، وأدمعت عيناه حتـى سالت الدمعة على شاربه، قال: لهذا ستجدني قـد حرصـت

على أن أجعل لشاهده طربوشًا أحمر، وأحـرص علـى أن أظهر مقبرته هو والحاجة بالنزاهة التي تليق بمقامها، وكنت قد نسيت فعلته، واندمجت في الحكايـة، وسـألته بشـغف: وبعدين.. فأنا...

ورد علي وهو يمسح دمعته بكـم جلبابـه المتسـخ: آ.. أعرف أنك تريد أن تسأل ولكن مظهرك لا يدل على أنك ابن ناس أغنياء؟

وبدأ يحكي عن الموسم الذي أضاع ثروة أبيه، وانهيـار بينهم، وموت الرجل الكبير بالسكتة وموت أمه الذي أعقبـه بفترة قصيرة، وحياته في القطار يبيع الناس الكـازوزة فـي الصيف واللب والسوداني في الشتاء، وهجرتـه للبلـد، ثـم عودته إليها برغم أنه لا يملك فيها قيراطًا غير هذه المقبـرة الفارغة إلى جوار مقبرة والديه.

سألته: يعني تبيت هنا؟

لف ذراعه حول ظهري، وشدني لأقوم، وقال: تعال أريك بيتي، وقمت معه، ولم يرفع ذراعه أبدا، حتى وصـلنا عنـد الحفرتين الممتلئتين بالماء.

كانت الشمس قد غابت عن السماء، وانعقدت فـي الجـو كتل الغبار، والحقول من بعيد بدت فارغة والـزرع صـار ممتدا في وحدته، والشواهد صارت موحشة ومخيفة.

سألت الرجل: ألا تخاف عفاريت الليل؟ قال ما عفريـت إلا ابن آدم. وطلب مني الدخول إلى المقبرة الفارغة، كانـت مبنية بالطوب الأحمر ومفتوحـة أرضـها علـى السـماء ومفروشة بالرمل النظيف.

قلت: إنني أراها من هنا، قال: لا.. حين تدخل ستشـعر أنك في بيت حقيقي. وضعت الكتاب على السور. وأشـرت إلى الشاهدين: هنا أبوك وأمك؟ أضاف: وإخوة صغار ماتوا من زمان.

وسألته: كلهم ماتوا؟ قال: لي إخوة تعلموا مثلـك، واحـد منهم لم أره من عشرين سنة، حصل على شـهادة الجامعـة وسافر إلى الخارج، دفع أبي عليه دم قلبـه، ولكنـه النـاكر للجميل، لم يسأل عني مرة.

وزحزح الكتاب من على السور فسقط في الداخل، وقال: ادخل.. ادخل. انحنيت لأمرق من الفتحـة المبنيـة بشـكل محراب الجامع، غاصت قدمي في الرمل فتراجعت، ولكنـه

دفعني من خلف، فكدت أسقط على وجهي، وقـال: ادخـل.
قلت: تمسيت والدنيا حضلم.. قال: بات معي الليلة.

قلت: لا أقدر. قال أعمل لك شايا.

ورأيت مقطفًا مركونًا إلى جوار الحجارة التـي يجعلهـا وسادة للنوم، قال: كنت أتمنى لو تزوجت وأنجبت ولدا مثلك، ولكني لم أتزوج أبدا، كان أبي قد قرر تزويجي فـي نفـس الموسم الذي خسر فيه صفقته، وأنت ألا تتمنى أن تتـزوج؟ قلت: لما أنهي دراستي.. أفكر في الزواج.

وسألني: عمرك ما نمت مع امرأة؟

فاجأني السؤال، فملت برأسي إلى الأرض، رفـع ذقنـي بإصـبعه الملمومـة، وواجهنـي بـالنظرة الجريئـة، وقال: لا تنكسف.. قل الصراحة. قلت: لا والله.. أبدا. ألـح في السؤال: بذمتك ودينك، قلت مؤكدا: أبدا.. أبدا. قال: ولا نمت مع أولاد صغار؟

انتفض جسمي، وبدأ العرق يتسرب من مسامي فرفعـت إصبعي لأمسح جبهتي فواجهتني نظرته الثابتـة الشـغوق. قلت: أمشي.. أمسكني من ذراعي وقال: لسه بدري.. هـه.. ولا أولاد صغار؟ قلت: لا والله. قال: عيني في عينك.

لم أرفع وجهي إليه، وهو مال برأسه، وأطل علـي مـن أسفل مبتسما، قرب وجهه مني حتى شممت رائحـة فمـه، وسألني وهو على حالته: ولا مع حمارة؟ أو كلبة؟

قلت: أريد أن أمشي.

قال: أجب على سؤال أولاً.

قلت: أبدا والله.

قال: زي حالاتي.. عمري ما عملتها..

سألته: عملت إيه؟

أجاب: النوم مع أحد.

ثم واصل كلامه: ما رأيك؟ سألته: في إيه؟

قال: ننام مع بعض الليلة.

انسحبت بجسمي إلى الوراء، وحاولت أن أملص ذراعـي منه ولكن أصابعه كانت قد ماتت على زندي، وبيده الأخرى أخرج مطواة من صداره، فردها بنطرة واحدة، وقربها مـن عنقي. قال: قلت إيه؟

كان قلبي يخبط بعنف على صدري، والعرق سال من كل جسمي، قلت له: حرام عليك. قال: مفيش فايدة.. حدبحك.

قلت له: لا أقدر. قال: حاول.

سكت فترة طويلة، والمطواة تحوم حول وجهي، وهو قـد عض على أسنانه الصفراء، وسأل: هه؟؟ قلت: أمي تسـأل عني. قال: قل لها كنت أذاكر مع زميل.

وأتى بالطوب الذي يجعل منه وسادة للنوم، وسد به فتحة المقبرة، وشد المقطف، أخرج منه خلقات قديمة، وكون منها وسادة لرأسه، ثم أخرج وابور الجاز والكنكة، التفـت إلـي وقال: أعمل لك شاي.

ركن عدة الشاي، وذهب إلى الركن الآخر كاشـفًا عـن مؤخرة يتناثر عليها شعر خشن، يخرج من عجزه في خـط أسود إلى ظهره، حتى يختفي تحت الجلباب المشلوح، لـوى رأسه نحوي وقال: هنا الكنيف.

وقفت منتصبا، ورأيت في وقفتي رؤوس الشواهد تطل في تطفل وطربوش أبيه الأحمر كان قريبا ودافق الحمرة مخفيـا رأس الشاهد المجاور، وقلت في نفسي: الآن هـو مشـغول بخرائه.. وهذه فرصتك وفي قفزة واحدة كنت ممسكًا بطرف الطربوش، قافزا أمامه، داست قدمي الحفرة المبتلة، فرفعتها من الطين، وارتميت على الأرض، وشعرت بحريـق النـار في صدغي، ولكن قمت شادا كل عضـلاتي. أجـري فـي

منعرجات شوارع الجبانة الضيقة، وهو كان في عفرة التراب يصرخ من ورائي: حدبحك يا ابن الكلاب.. حدبحك.

والمطواة في كانت في قبضته، وسـرواله السـاقط بـين الحين والآخر، وكنت لا أرى شيئًا أمامي، لقد صفرت الريح في أذني، وعلى طول الطريق كان الناموس الذي هاج مـع قدوم الليل يضرب وجهي.

ليل النهر

سمعت الأصوات الخافتة تأتي من وراء ظهري قلت فـي نفسي: وصل. رأيت أشباحا سوداء في الحافة، بيـد أحـدهم فتيل تتراقص شعلته.. كانوا يحملقون بصمت وحذر في الماء قرب الحافة، قمت إلى الجهة الأخرى، ورأيت شبحه بيـنهم، ورأيت جسما طافيا على سطح النهر، يقبل جهتـي بـبطء، أمسكت حديد السور وأملت رأسي لأنظر، وأقبل الجسم ليمر من تحتي، كان وجها مستديرا ينساب وراءه شـعر طويـل يتماوج في الماء، باقي الجسم كان غاطسا في العمق، فقـط الوجه والشعر الطويل المتماوج، وجزء من ساق متخشبة في ثنيتها، والجلباب كان منسحبا إلى أسفل، يبدو في الماء بعيدا كطيف.

والأشباح التي رأيتها على نور الفتيل لما وصلت الكوبري صعدت إلى الجسر، لتستقبل الجسـم الطـافي مـن الجهـة الأخرى، اتجهت إليهم، فبدت وجوههم المذعورة على نـور عمود الشارع، امرأة بجلباب النوم محلولة الشعر، تنوح نوحا خافتًا ومكبوتًا، تمسك أطراف جلبابها بقبضة مشدودة متوترة، وراءها رجل بعنق طويل وشارب معقوف، يقـبض علـى

زندها، يدب بأقدامه الحافية على الأرض بعنف، وشال عمامته كان مفكوكًا على كتفه، ورجل يلبس جاكتة البدلة فوق بيجامته المخططة، ونظارته الطبية التي كان يرفعها من حين لآخر وحبات العرق المتشبثة بجبينه لمعت في الضوء، رآني حين ظهرت عليهم فجأة، التفت إلى وجهي بسرعة، وأهملني لينضم إلى الجماعة، أمسكت بكف صديقي المبلولة وسألته: فيه إيه؟

شدني لننزل تحت الشجرة الكثيفة الأوراق وهمس في أذني: غريق.

أفلت الرجل الطويل العنق يده من ذراع المرأة وانحنى على غصن جاف ملقى تحت الشجرة، ضرب به سطح الماء ونادى على الغريق بصوت ضعيف: حود يا طالب الدفنة.

وتابعت المرأة نداءه: حود يا طالب الدفنة.

والرأس فوق الماء انعكست عليه ألوان مصابيح النادي، وسار في اتجاه واحد كان على بعد مترين من الحافة يسير مع التيار الهادي، قلت لصديقي: الظاهر بنت، قال: بنت.

وصعدنا مرة أخرى إلى الجسر، عدل الرجل النظارة وقال: ننتظر عند حودِاية البحر.. أكيد حيقف هناك.

ومشينا نحو انحناءة النهر خـارج دور البلـد، وأقبلـت الدراجة عليها الرجل السمين مقطوع الساقين: كان يسـحبها ولد سقط شعره على عينه، قال صديقي: محمد النص، قلت: ما تقلوش.

سأل محمد النص: فيه إيه؟

قال الرجل الذي يلبس النظارة الطبية: غريق.

وأمر محمد النص الولد أن يعود بالدراجة ليلحق بنا، دسنا التراب الناعم فوق الجسر، حين بدت قبة المسجد بيضاء بين خوص النخيل، أضاء مصباحها المعلق في الهـلال الآخـر اتجهت المرأة جهة القبة، ومدت يدها: يا شيخة آمنة

قال صديقي: فاكرة أن الغريقة بنتها. سألته: بنتها؟ قـال: سابت لهم الدار من أسبوع. سأل النص من فـوق دراجتـه: بنت مين؟ قال صديقي: معرفش. وأكمل فـي أذنـي: لمـا ضربوها ولعت في هدومها.

سألته: ضربوها ليه؟ قال: كارهة عريسها.

جمع الرجل الطويل العنق أطراف قميصه الأبيض بيـده، ونزل في وحل الحافة، مد الغصن حتى وصل الوجه الطافي، وهتف بصوت مرتفع: حول يا طالب الدفنة. التـف الشـعر

حول رأس الغصن، وشده الرجل، فعاد إليه الغصن ملفوفًـا عليه الشعر الأسود المبتل، نفخ بضيق: مفيش فايـدة. قـال الرجل الذي يلبس النظارة: حتقف عند الحوداية.

وسار الرأس جهة انحناءة النهر، طلب الولد الذي يمسـك الدراجة أن أسند مكانه ليقف هـو عنـد الانحنـاءة ينتظـر الغريق، أمسكت يد الدرجة من الناحيتين وشمر الولد أطراف البنطلون إلى الركبتين، وخلع النعلين أعطاهما للمرأة وسـار أمامنا ليقف على جذور الشجرة التي تنبت من النهر، سألني النص: بنت مين؟ قلت: ما أعرفش. سألني: من بلدنا؟ قلـت له: الله أعلم. ودفعت الدراجة الثقيلة فوق التـراب النـاعم، لنقترب من الشجرة المنتصبة بين سور المصلى، الولد غاص في الماء ليستقبل الجسم الذي يقبل جهته في خط مستقيم، لما وصل عند الحافة اصطدم بها واستدار ليخرج مرة أخـرى، فأسرع الولد إليه، ومد يده على آخرهـا، وأمسـك بالشـعر الطافي، لمه في قبضته، وشده جهة الجسر تدحرجت المـرأة جهة الجسم المكشوف الساقين، قربت بالفتيل مـن الوجـه، مسحته بأصابعها، وحملقت فيه طويلاً: ضنى أمك.

سأل النص: تعرفيها؟ قالت: دي غريبة.

زفرت براحة، تسلقت الحافة، واقتربت منا، وراحت تنظر إلى القبة وتردد: الحمد لله. الحمد لله.

ونادت على رجلها الذي انحنى على الوجه يتأملـه: يِينَـا يا راجل. بقينا الفجر. قام الرجل، وتـرك الجثـة مكشـوفة الساقين والولد وقف على أحجار المصـلى يغسـل قدميـه، وصرخ محمد النص: حرام عليكو.. طـب طلعوهـا فـي المصلى. انكمش الجميع، وتشبثت قبضتي على يد الدراجـة، صرخ مرة أخرى: يعني أنا إللي أنزل أشيلها. طلب الرجـل الذي يلبس النظارة من الولد أن يرفع الجثة إلـى المصـلى، شخر الولد وقال: مش كفاية.. ما تشيولها انتو. قال الرجـل: نشيلها كلنا.

قالت المرأة لرجلها: روح معاهم. نزل الولد عن أحجـار المصلى ورفع الساقين وأمسك الرجلان الكتفين مددوها على قش المصلى، والمرأة عبرت السور الواطيء وانحنت عليها، فردت ثوبها على الساقين العريانين ولمت صدرها المفتـوح، والولد رفع القش وغطى به الجسم، وترك الوجه مكشـوفًا، قال النص: لما يطلع النهار المركز يِتْصرف.

وعدنا نحو الدوار، سار الولد ساندا الدراجة في المقدمـة، ومن خلفه كانت المرأة مع رجلها منهمكين في حوار خافت، وبالقرب منهما كان الرجل الآخر يمسح زجاج نظارته فـي منديله، وأنا وصديقي سرنا في المؤخرة، سـألني: حنـروح فين؟ قلت. أي مكان.

التجلي

حين طردت النفس الأخير، وسكن صدرها، انسحب ضوء العين، صرخت النسوة ومدت واحدة منهن إصبعين يسـبلان الجفنين، ويسدلان الطرحة البيضاء على الوجه الذي صـار أصفر بلون المصباح المعلق على الجدار.

مسح الخال دمعتين بطرف كمه وقال: يا عيني يا اختي.. قبل ذلك بيومين وحين وصلت البلد مساء. كان بقلبي شـوق شديد للقاء البنت التي أحبهـا، لكـن أمـي قالـت: خالتـك مريضة.. واجب تزورها.

قلت: لا أحبها. قالت: عمرها ما غلطت فيك.

دفعت الباب الموارب، ودخلت عليها غرفتها، كانت وحيدة في فراشها، الغطاء على نصف ساقيها، وشـعرها منكـوش يختلط فيه الشعر المصبوغ بالحناء بشعر عليه بقايا صـبغة سوداء، التفتت على دفعة الباب، وكانـت عيناهـا قـائمتين لا تريان غير الدخان، سألت: من؟ قلـت: أنـا يـا خالـة. قالت: ألم تعثر على ابن خالتك في مصر؟ قلت: يـا خالـة مصر واسعة.. غدا يجيء. قالت وهي تبكي وكانـت ترفـع ذراعا تماس بها على شعرها ووجهها، وترميها بعيـدا، ثـم

ترفع الأخرى تماس بها شعرها ووجههـا وترميهـا بعيـدا:

يا وابور يابو عجل حديد.. هات لنا الغرايب من بلاد بعيد..

دخلت أمي، افترشت الحصير، وأسندت ظهرها على الكنبة، شقت برتقالة نصفين وناولتني نصفًا، قالت: ناولها ربما تأخذ من يدك.

أخذت نصف البرتقالة، قربته من شفتيها، فاصطدمت به، قالت: برتقال؟ قلت: مصيها، قالت وقد أدارت وجهها جهـة الحائط: لا.. لا أريد.. نفسي لا تقبله. تركتهـا مـع أمـي، وخرجت أبحث عن الصحاب، لنقضي سهرتنا - كالعادة - على غرزة "العربي"، قلت لهم: خالتي مريضة، قالوا: ربنـا يشفيها.

حضرت زوجات عمـي والجـارات لابسـات الهـدوم السوداء، بحثت بينهن عن العيون التي أحبها، واشتاق إليهـا في بلاد الغربة، صوتن كثيرا وبكين قليلاً نوحن فـي نفـس واحد: يا خراب بيتك يا حبيبتي.

وكانت أمي قد قامت تجمع هدوم الخالة، تعقدها في صرة ناولتها لأختي لتذهب بها إلى دارنا، لما عادت جمعـت مـع أمي الدجاج الذي تكوم في ركن مظلم عند الفرن، ورفعا معا

صورتها عن الجدار (كانت تبتسم بوجه أبيض بلون الحليـب ملفوف في طرحة خفيفة شفافة يظهر من تحتها منديل رأسها الأسود) النسوة سكتن مرة واحدة، وانتشرن على الحصـير يمصمصن شفاههن، كانت تخرج منهن أصـوات مكتومـة متشنجة، ثم بدأن يحكين عن أمواتهن، ويذكرن أنها كانت نِعم الجارة، نظيفة طول عمرها، عايقة، تحب الثيـاب الملونـة، ولم ترفع طرحة الصلاة عن رأسها منذ أن مـات زوجهـا، لا تأكل إلا اللقمة الحلوة، وقلن إن ابنها هو الذي كان شرسا وحشاشًا وخمورجيا، كان يكسر لها الصيني والمرايـا ولـم تسترح إلا حين غادرها إلى مصر، ودعـين الله أن يهذبـه، وأن يرحم أمه الطيبة، لما بدأن يتململن طلبت أمـي مـنهن أن يعدن إلى بيوتهن لأن أزواجهن وعيالهن في حاجة لهـن. أما هي فقاعدة وأنا معها، ودعت الرب بأن لا تمشي لهن في مكروه.

بقيت أنا وأمي وحدنا مع الخالة التي سترها الغطاء مـن الرأس إلى القدم، جلست أنا عند القدم، وجلست أمـي عنـد الرأس ساندة خدها على كفها، أغفت قليلاً، ثم انتبهت فجـأة تنفض عبها وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وطلبت منـي

أن أساعدها في تقليب الجثة خوفًا من الرائحة التي قد تنتشر منها. رفعت الغطاء فبان وجهها، وانكشف فخذها، قربت أمي عينيها من وجه الخالة مدة طويلة، بعدها وجـدت ملامحهـا انكمشت وانفرطت من عينيها دموع غزيرة، وبكت بصـوت عال لم تستطع منعه، وراحت تعدد:

ديري المخدة يمين

ما نتيش غشيمة يا بنتي

زاد علي النين

ديري المخدة شمال

ما نتيش غشيمة يا أختي

زاد علي الحال.

أنا الذي حافظت على دموعي بكيت بكاء حقيقيا بـدموع وحزن شديد شعرت معه بأن جسدي يتطهر، ورأيت - فجأة - أن خالتي في نومتها هذه مظلومة، بـل اكتشـفت مـرة واحدة أنها كانت طيبة جدا، وأنها كانت تحبني كـابن لهـا، أمسكت كفها التي صارت عروقها زرقاء تتفرع في جلـدها الذي فقد لونه.

نامت خالتي في طاعة على جنبها الأيسر، لملمت ثوبها، وسترت فخذيها، وجمعت فتحة الصدر في الدبوس الذي كان مشبوكًا في جانب واحد، حين ثقلت رأسي رحت في غفـوة قصيرة.

(رأيتني صغيرا جدا بين يدي الله الجالس علـى عرشـه المضيء، على يساره سور عال تطل منـه ألسـنة اللهـب المرعدة وعلى يمينه سور عال تطل منه أغصـان العنـب المثقلة بالثمار انتبهت بعدها على صوت المؤذن: سبحان من تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من كان عرشه على المـاء، سبحان من علم آدم الأسماء.

شعرت ـ في الحال ـ أن خالتي نائمة، وأنها سوف تقوم من نومها حين يطلع نور الصبح.

في الصبح أحضر الرجال المِغَسلة، أدخلوها حجرة الكنب بعد أن رفع ووزع في الشـارع يقعـد عليـه المشـيعون، أما النعش فقد ركن أمام الباب في جوفه كان اللحـاف يلمـع حريره الأحمر، وباقة ورد ذابلة ثبتت فـي المقدمـة عـن الرأس.

خرجت خالتي من بين الضلفتين لفة بيضاء معقودة مـن كل جانب، فاحت قبل أن تطرح في الخشبة رائحـة عطـر عتيق، تركنا أختي وحدها في دار الخالة، بينما سرت أنا في المقدمة مع الرجال يتأبطني صاحب كان معي فـي الغـرزة عندما طلت اللفة البيضاء من الباب، وعندما توقفت خشـبة الميتة، وحرنت من الرجال تريد أن تـدخل الـدار، قالـت النسوة: يا وابور يا بو عجل حديد.. هات لنا الغرايـب مـن بلاد بعيد.

عقب صلاة العصر حضر الشـيخان، دخـلا المضـيفة، ووقفت أنا في الصف مع الرجال أستقبل المعزين يقولـون: عظم الله أجركم.. وأرد: شكر الله سعيكم.

بينما النسوة في دارنا قد أوقدن النار، وصففن عليها أوان ممتلئة باللحم الذي أحضره الخال من جزار القرية المجاورة. وبالبطاطس التي اشتريتها أنا من السوق.

قلن إنه حينما وصل مع زوجه اللابسة السواد، صـرخت النسوة في وجهه وجددن البكاء الذي نزفته في الصبح، فمـا كان منه إلا أنه سبهن جميعا وطلب منهن أن يخرسـن وأن

يرحن على دورهن، فالميتة هي أمه وليست أم أحد غيـره، وأكدن أن عينه كانت حمراء بلون الدم..

أما أنا فقد رأيته في الصف بين الرجال مقـبلاً عنـد أول الشارع بوجهه الضاحك لا يظهر عليه حزن.

وقالوا: إن موت أمه لم يهزه. بل لقد كان فرحـا، فهـو سيرث الأرض التي سيبيعها للغريب، ويقعد في الـدار مـع زوجه التي لا تلد أبدا، وسيرتاح من أمه التي ضربها كثيـرا وكسر القلل في وجهها وطعنها بالسكين حين طالبته بأن يعود للوظيفة ويدع لها الأرض ترعاها.

سلم علي، وقال إنني قد أوحشته، وكيف أكون في مصـر ولا أزوره في بيته، وهمس في أذني أن بجيبه تعميرة نظيفة، وأننا سوف ندخنها عقب هذه الزيطة التـي لا داعـي لهـا، ووقف إلى جواري في الصف يمد يده للرجـال، فـي التـو انتشرت رائحة الكحول من جوفه، فتركت الصـف ودخلـت عند النسوة آكل طبق بطاطس أو أرز فقد شـعرت بجـوع شديد.

هناك عثرت عليها بينهن تخرط البصل، ودموعها غطت العينين الجميلتين، وسألت على خديها اللذين طلع عليها ورد

أحمر، ابتسمت لي وهي تزيل الدموع الساقطة، نسيت الجوع، وحاولت أن أصل إليها.

قالت لي حين حطت الإناء على الفرن، الليلة.. في نفس المكان.

في أول الليل أشعلنا النار، وجلسنا في الغرفة التي بآخر الدار، حين كان يرص الحجارة ويمد لي يده بالغابة، قال النكتة التي أضحكتني، وغطت على تشنجات النسوة المتكومة في حجرة الكتب.

في آخر الليل كنت بين الجدارين المهدومين في انتظارها.

الضحى العالي

- ١ -

حضر معنا عرس أبيك، وكنا قد صلينا العصر، وخرجنا من الجامع إلى دار العروس، وصعد معنا السلم المرتفع، جلست بين أصحابي، وجلس هو هناك بين الكبار حول المأذون، وخرج في الصورة مع العريس ضاحكًا فرحا، وفي الصورة الأخرى كان يجلس قرب الدولاب، فالتقطت الصورة جانب وجهه في المرآة.

وفي دارنا، لما جاءت أمك في السيارة الصاخبة، رفعها أبوك بين يديه، وأدخلها في زحام الناس إلى الصالون، فاستدعوه من الصالة والتقطت له الصورة بين أصحاب العرس.

هذا هو جدك يا أسماء، الذي أشار إلى بطن أمك بعد خمسة شهور من زفافها وقال: ولد إن شاء الله.

ضحكت أمك وقالت: أسميه باسمك.

- ٢ -

قضى الحاج صلاة الفجر، وعاد إلى الدار، دفع الباب الكبير، كانت الدار ساكنة، الجدة نائمة، وحجرتكم مغلقة، يشتعل زجاج بابها بالنور الأحمر، فتح الباب على الجدة الراقدة على فراشها تئن من أوجاع رجلها، خلع العباءة عن كتفه، وعلقها على الشماعة، استدار إليها:

- لسة نايمة؟

نظرت إليه من تحت الغطاء، ولم ترد، سألها:

- مين حيجهز لي الفطار؟

بحلقت فيه. ولم ترد.

- ما بترديش ليه؟
- أنت مش شايف.
- إلهي تبقي عليلة على طول.
- رح يا شيخ إلهي اللي في يجي فيك...
- خرج الحاج إلى الصالة، ووقف حائرا، فكر أن يخبط على باب حجرتكم، لكنه تردد.

كان حين يعود من صلاته، يجد زوج ابنه قد أشعلت النار في الموقد، وجلست في ركن الحجرة، تقسم الرغيف نصفين،

تضع النصف على الجذوات، وتهب عليه بذيل جلبابها، بعـد أن تنتهي تدس براد الشاي في الرماد الساخن وهـو علـى الكنبة، إلى جواره المذياع يردد قرآن الصبح منتظرا الخبـز والشاي.

هذه يا أسماء عادة جدك من زمان، كانت جدتك تعد لـه إفطاره ثم عماتك قبل زواجهن، وها هي أمك تقوم بواجبها، ولكن أباك أمرها:

ـ طالما أنا في أجازة لا تلتفتي لغيري.

حاول الجد أن يعد إفطاره بنفسه، ولم يرد إزعاج أحـد، ها هو الموقد، وها هي زجاجة الجاز، والبراد معلـق فـي مسماره، ولكن الكوالح فوق السطح، وهو العجوز الضـعيف لن يقدر على الصعود، قال لنفسه: بلاش النار. وحاول صنع الشاي على وابور الجاز، ولكن أين هي علبة الكبريت، وأين يجد علبة السكر، وعلبة الشاي؟

عاد إلى الجدة يسألها فردت بخشونة: أنا من يومين قعيدة، معرفش حاجة في الدار.

كان لا بد أن يخبط على بابكم، ليوقظ أمك فتحضر له هذه الأشياء، خبط الباب، ونادى بصوت عال، وجاءه صوت أبيك

يسبه من خلف الباب، ثم خرج إليه في الصالة ليزعـق فـي وجهه: لا راحة في شغل ولا في الدار.

وهو الرجل الذي أدب أولاده الكبار، ولم يزل الواحد منهم ـ وهو أب لأولاد وبنات ـ يرهب طلعته، انسحب الجد إلى حجرته، وقعد على كنبته، ساندا رأسه على كفه، لا يجيب.

-٣-

كنا حول الموقد بحجرة الجد، بينما المطر يخـبط شـيش النافذة المغلقة، سمعنا الطرقات القوية على الباب الخـارجي، كان البوسطجي بيده مظروف، قرأت ما به للجد فانهار على الكنبة، كانت إدارة الآلات البخارية تأمره بغلق الطاحونـة. لأن الشروط الصحية لم تعد متوافرة لها، فهي تقـع وسـط المباني، في حين ينبغي أن تكـون المسـافة بـين وابـور الطاحونة وأقرب دار لا تقل عن خمسين مترا.

هل هذه نكاية من أحد الجيران؟ لا أحد يدري يا أسـماء، وما حدث أن الجد خرج رغم الوحل، وسافر ليقضي ليلته في بيت ابنته التي تسكن المدينة، ليقابل المسئول في صباح اليوم التالي.

وسمعنا من عمتك أنها كانت قاعدة بجوار بابها، ووصـل إليها لهاث ثقيل من جانب السلم، راحت تنظر، كـان الجـد متربعا على البسطة عاجزا عن الصعود صرخت: آبـا إيـه اللي جابك الساعة دي؟

ونزلت إليه لترفعه من ذراعه، إلى الدور الخامس، حيث الشقة.

كان جدك قد بذل مجهودا كبيرا، فاستند منهارا على مسند الكرسي. وتعود الجد مسك العصا، هو الذي يسخر من أبناء جيله الذين انحنوا للشيخوخة، وكان الجد يقعد على كرسـي الصالة، والعصا بين ساقيه يؤرجحها، ويحادثها: إيش حـال الاثنين.. بقوا ثلاثة.

ظل جدك يا أسماء، رغم هيكله الهزيـل يتـردد علـى المكاتب وراء الأوراق، فكان يكثر من السفر، وفـي مـرة جرح في معصمه، فقد أراد أن يركب الأتـوبيس، ومـا أن وضع قدمه على السلم، حتى تحرك مسرعا، ويد الجد بـين بابه المغلق، وظل يسحبه وهو يجري معه مسافة طويلة.

- ٤ -

دخل يوما بعد آذان الظهر، مرق من الصالة إلى الحجرة بآخر الدار، كانت جدتك وأمك بين الأواني، يلفان أوراق الكرنب على الأرز، والوابور يجلجل متداخلاً مع تكتكة الطاحونة، فلم يسمعا خطو الجد، الذي جلس إلى طرف الكنبة بهدوء.. بعد برهة التفت إليهما وصاح: ارقصوا.

نظرت إليه الجدة مندهشة، وقد لمت طرف أذنها في كفها: إيه.. بتقول إيه؟ رد عليها: بقول ارقصوا.

ولأنها لم تسمع، رددت أمك عليها ما قاله الجد، فالتفتت إليه مرة أخرى: ليه؟ فأجاب بفرح: الطاحونة مش حتقفل.

وعادت الجدة إلى الملفوف تصفه في الإناء، وهي تقول: طيب.. مبروك. كانت الإدارة يا أسماء قد سمحت بأن تعمل الطاحونة، على أن يقوم صاحبها ببناء جدار يدور حول وابورها ليمتص قوته، فلا يهدم دور الجيران.

وعند صلاة الفجر، سمعت الجدة الآذان يتردد على المآذن، ولكنها لم تسمع كحته في الحمام، ولم تسمع الحنفية تصب عليها ماء الوضوء، والباب الكبير لم تهتز سقاطته للدفعة القوية التي تصحب خروجه إلى الجامع. انسحبت

الجدة من تحت غطائها، فوجدته في فراشه يرتجف، فاقتربت منه: حاج.. مالك؟ فنقل رأسه جهتها ببطء: هاتي بق ميه..

كان جدك يا أسماء قد استسلم للمـرض، بينمـا اجتمـع الرجال لما أشرق النهار في الحوش حول الأسمنت والرمل، يرفعون الجدار، حين سمع أصواتهم، أصر أن يرفعوه إلـى هناك ليشرف على البناء، رفضت الجدة ورفـض الأبنـاء، وأصر بعناد، فأحضروا له عصاه، ورفعوه من إبطيه، حيث أجلسوه على الكرسي، وضع ساقًا على ساق، والتف بشـاله، في بقعة الشمس، بالقرب من الرجال الذين ربطوا السـقالات فوق براميل الزيت، ليضعوا الطوبة على الطوبـة، وجـدك عينه عليهم، لا تفارقهم، وفي وقت الغداء جاءت أمـك إليـه بالطبق، فراح يرشف الشربة، ويبتلع حبات الأرز البيضـاء بعناء.

وفي اليوم التالي، طلع عليه نور الشـمس مـن النافـذة، وتردد صوت الرجال، ولم يطلب الذهاب إليهم، ولما قـدموا إليه الطبق بالشربة، أزاحه بيده، وظل نائما لا يفيـق، حتـى يطلب الذهاب إلى الحمام، ولأنه كان يبذل المجهود الكبيـر، فضلوا أن يبقوا له الإناء يبول فيه.

- ٥ -

بعد يومين أيقظوه، فلم يستيقظ، ظل في غيبوبتـه يـردد أنفاسه بجهد وببطء شديد، فجعلوا السرير بعرض الحجـرة، لتصبح رأسه جهة القبلة، وفي صباح اليوم الأخيـر تمـددت على الكنبة مرهقًا من السهر، قرب سـقوطي فـي النـوم، سمعت نحيب أبيك، كان ينشج يا أسماء كطفل ضال، فبعد أن تولى نوبة السهر على الجد بعدي، هدأت الـدار، أعمامـك الكبار عادوا إلى دورهم، وعماتك رقـدن فـي حجـرتكم، متعبات من عمل اليوم وظل أبوك وحده، يشرف على الجد، قعد عند رأسه، وبدأ يتأمل وجهه النحيل وأنفاسه المجهـدة. وجسده الضامر تحت الغطاء المبلل ويده المعروقـة أراد أن يرفعها لتهرش أنفه، لكنها تاهت منه في الطريـق وخبطـت وجه أبيك، فأمسكها، وقربها مـن عينـه، وتأمـل وشـمها المرسوم على ظاهر الكف، انحنى عليها بشفته وقبلهـا، ثـم وضعها بحنان على صدره، وفي الحال انفجر فـي البكـاء:

يا حبيبي يا آبا.

والجد يا أسماء في غيبوبته لا يشعر بشيء، فقـط يـردد أنفاسا صعبة، ومن حين لآخر ينشـق الهـواء بأنفـه، كنـا

يا أسماء لما نرى ذلك نتوهم اليقظة فتميل عليـه بوجوهنـا ونهتف: آبا.. آبا.

يفتح عينه الغائمة للحظة. ثم يعود للسقوط في الغيبوبة.

وانتفض أبوك خارج الحجرة، وجلس إلى جواري. فزعت على صوته.

سألته: أبوك عامل إيه؟

غطى وجهه بذيل جلبابه، وهو ينكت جسمه بالبكاء: أبوك بيموت.. أبوك بيموت.. لازم نجيب الدكتور.

قلت: الصباح رباح.

قال: لازم دلوقتي.. أبوك بيموت.

وخرجنا معا إلى الشارع، كان الليل يا أسماء ينسحب من الشوارع ونور العواميد بدأ يتجمع أسفلها.

نظرت إلى السماء، كانت الغيوم سـوداء مكدسـة فـوق البيوت، لما تركنا شارعنا وانحرفنا علـى بيـت الطبيـب، سقطت على أكتفانا حبات مطر كبيرة دافئة، رفع أبوك نظرة إلى السماء بحزن، وعاد بنظره إلي، والتقت عينانا، وسـالت الدموع على شاربه، مسحها بكم جلبابه، وتهيأ ليدق بيده على باب الطبيب.

بعد أن غادر الطبيب الدار بساعة، انطلق صوات العمات حول الجد الذي سكنت أنفاسه، مدت واحدة منهن يدها إلـى عينه فأسلبتها، وعقدت الأخرى فكه بشال العمامة.

وما أن تفجر نور الشمس الذي سقط على زجاج النافـذة، حتى تجمع الرجال خارج الدار، ووقف النعش على البـاب، ينتظر الجد الذي حمل على الأكتاف لتفرغ حجرته من وجود المهيب، ولتنتهي صلاة الفجر، وليبدأ اليـوم مـن الضـحى العالي.

المفتاح

في واحدة من صحواته، طلب الخـروج إلـى الصـالة، فأسرعوا إليه يقربون الشبشب من قدميـه، ويسـندونه مـن الجانبين، أنزلوه بهدوء ليقعد على الكنبة، وتجمعـوا حولـه، لا يصدقون فقد انفتحت جفونه من حدقتيه الغـائمتين، وراح يدور بهما في المكان، تملى السقف، ونظر جهـة الحمـام، وجهة الباب الكبير، ثم عاد إلى وجوههم المحملـة، وقعـت عينه على الأم، فتأملها طويلاً، زحفت بالقرب منه وأمسـكت قدميه تدلكهما: سلامة عزايمك يا حاج.

كانت البنات على الكراسي، وعلى درجات السلم، وفـوق الحصير، يحبسن دموعهن، يكتمن العين بكـف اليـد، أمـا الأولاد فقد مكثوا يرون المشهد متماسكين، والولد الصـغير كان معه على الكنبة يطوق ظهر الأب بذراعه.

وشردت الأم للحظة، تخيلت حياتها المقبلة، وحيـدة مـع ابنها الصغير، فالتفتت إليه بلهفة بعد أن قطعت شرودها.

ـ وصي ابنك يا حاج.. وصيه علي.

دفعها الولد بيده، وصاح في وجهها.. إيه.. مفيش عقل؟

ورفع الأب إليه عينًا متعبة، فيها لوم شديد، كأنه يقـول: ها أنا ضعيف ومقعد، وقد انسحبت من بدني شدة الأب.

وكأنه يقول: ها أنت تزعق في وجهها وأنا بينكم، فمـاذا أنت فاعل بعد أن أرفع من هنا؟

بعد العشاء طلب الخروج مرة أخرى، ظنوا أنـه يريـد الحمام، فرفعوه، وعبروا به الصالة، ولكنـه انحـرف نحـو الباب الكبير، واندهشوا: على فين يا آبا؟ أشار بيده العظمية: ماشي سيبوني.

لم يكن من الممكن أن يتركوه ليقع، فـأراحوه، وسـاروا معه، فأدخلهم حجرة الجلوس، ليقعد على الكرسـي الكبيـر، خلع الشبشب، ووضع ساقًا على ساق، ثم بدأ يتأمل السـقف النوافذ والباب والصور المعلقة، همسوا فيما بينهم: خفف عنه يا رب.. والولد الصغير بينهم يديم النظر فـي وجـه الأب الضامر، وضعفه الذي يرعش البدن النحيل، ويديم النظر في الوشم حول إصبعه الكبير واسمه المكتوب على زنده وتذكر ـ فجأة ـ الدولاب والمفتاح.

(كان الأب قبل سقوطه في الغيبوبة قد ترك المفتاح، وقال لا يفتح الدولاب غيره، وأكدوا أنه يحفظ فلوس جنازته بـين

أوراقه القديمة، عقد الولد المفتاح في عروة القميص، وعاش مع الأيام الأخيرة بقلق، والأولاد الكبار لما يجدون الفرصة متاحة، يحيطون به، ويكلمونه عن فلوس الدولاب لمعرفة عددها فيعملوا حسابهم، الموت يتكلف مبالغ باهظة، الكفن، وتجهيز المدفن، وبياضه، ثم هناك أجر الحانوتي، والفلوس التي ستوزع على المقبرة، وأجرة الفقيه، والبن لقهوة المضيفة، والحاج ليس بالرجل القليل، لا بد من تشريفه بسرادق كبير. وفتح الدولاب كان مستحيلا، طالما الأب في الحجرة).

وها هم يلتفون حوله في حجرة الجلوس، قال لنفسه فرصة.. أفتح الدولاب وأرى ما به.

وتسلل في غفلة من الجميع إلى حجرة الأب، كان سريره فارغًا إلا من الملاءة المكورة في ركن ومسانده المبعثرة.

رفع المفتاح من العروة، وتقدم مرعوبا إلى القفل، وما أن أدخل المفتاح في ثقبه، حتى كانت الأيام من خلفه قابضة على يده بعنف: أنا أمك.. أنا حضيع. نفض يده منها، وقال: لا يمكن.. الفلوس من حق الجميع.

فتح الدولاب، ومد يده تعس وسط الأوراق المكدسة، ولكن يد الأم المدربة خطفت الصرة المعقودة بإحكام، ودستها فـي فتحة الصدر، فدب يده في صـدرها صـائحا: لا يمكـن.. لا يمكن.

وهي تستغيث بضعف: أنا أمك.. أنا أمك..

واستماتت على الصرة، وصمم على إخراج الفلوس مـن صدرها، فكتم أنفها وفمها بيده، وحاصرها في ركن الحجرة: لا يمكن.. لا يمكن..

وأخرج الصرة، وعاد مرتعشًا ـ بعـد أن أحكـم غلـق الدولاب ـ إلى حجرة الجلوس، حيث كانوا مجتمعين حـول الأب، وهو لا يجيب، وقف على الباب، فـألقى عليـه الأب نظرة أرعبته، فارتد بظهره إلى الصالة، كانت الأم وحـدها جالسة فوق الحصير، تنوح وتلطم خدها.

ظل الموت

لما عاد الأبناء من الجبانة تكاثروا حولها وقالوا: أنت منذ اليوم معنا في دار أخيك. وقالت أمهم: من ريحة المرحـوم. ولما تأملوا وجهها المغضن، اكتشفوا في خطوطه وجه الأب الذي واروه التراب.

عند آذان المغرب، أضاءوا حجرة الأب، لتنير للروح التي تزور الأحبة كل مساء، وطلبوا من الشيخ أن يتلو آيـات الله لتأنس الروح، وتبارك أهل الدار، بعد آذان العشاء قالوا للعمة العجوز: فراش أخيك فراشك.

متواليات العزاء:

وكانت ـ في طلعة النهار ـ قد أقبلت على ظهر الحمارة السوداء الضامرة، مرت بين الرجال القاعدين على الكراسي المرصوصة بجوار النعش بعد أن قطعت الشـارع الطويـل يسحبها ابنها الكبير.

عند باب الدار، فردت كفها على الجـدار، فقـام رجـل وساعدها: البقية في حياتك، وفتح لها الباب حيـث واجهـت

السواد المكدس بالردهة، وراحـت تسـتند علـى حـوائط الحجرات بيد، وبالأخرى جمعت طرف الشاش حول وجهها.

النسوة المعزيات أفسحن لها طريقًا ضيقًا بين ظهـورهن، وبالنظر الشحيح لمحت على السرير ـ تحت الملاءة البيضاء ـ الجسد النحيل الساكن المسدول عليه البياض، تتجسد تحته تكوير الرأس وانتصابة القدمين، والسـرير كـان بعـرض الحجرة ليصبح الرأس جهة القبلة، والنافذة ـ فوق السرير ـ مغلقة بالشيش والزجاج لتحمي الراقد من عين النور.

على عتبة الحجرة كادت تسقط من الـوهن، غيـر أنهـا فردت ذراعيها فجأة فاصطدمتا بالضلفتين، لتخبطـا الحـائط على الجانبين بقوة، قامت امـرأة لتجلسـها عنـد القـدمين المنتصبتين.

حين ارتاحت على الأرض، تنهدت إذ أنها بـذلت الجهـد الكبير، وهمهمت النسوة فيما بينهن: ما كان لها أن تجـيء. وقلن أيضا: العظمة كبرت. وهمست واحدة متكومـة علـى نفسها: أكبر منه بأربع سنين.

حين مسحت الدمعتين اللتين انحدرتا في شـقوق الوجـه، رأت في مرآة الدولاب وجهها وعمود السرير وساق الراقـد حتى حدود العورة المطفأة.

كانت أحب الأخوات إليه، مات زوجها من عشرين سنة، لم ينقطع هو عن زيارتها في العيدين والمواسم، يزورها في دار ابنها البعيدة، وكانت تسعد بحضوره، يطل عليهـا مـن الباب شامخًا بعمامته الزاهية وجلبابه السـابغ الفضـفاض، ينحني عليها بقامته: إزيك يا فاطمة. ويمد ابنها كفه المجذوم ـ جف حتى صار كجذع شجرة سنط ميتة ـ ويحييه كمـا ينبغي للرجل المتواضع أن يحيي الرجل العالي القدر.

يفرد الحصير اللامع الملموم في الركن، يهـزه هـزتين يسقط الغبار المنتشر في ثنايا السمار، ويبسطه على الأرض، ويحاف عليه ألا يجلس حتى ينيم المسند على الحصير، ويمد خاف ظهره الوسادة المكسوة بالكيس الأبيض المطرز.

هكذا يبدأ عندها العيد، وينتهي حين يفتح المحفظة البنيـة الكالحة، ويختار لها الجنيه من بين الورقات الكثيرة، تدسـه في كيس القماش المزموم بخيط يلف على رقبتها، وها هـو مستكين للغطاء المفرود عليه، وها هو يطيع الرجال الـذين

رفعوه عن سريره إلى المغسلة التي امتدت بطول الحجـرة، أما هي فقد قبعت بين النسوة ترقب الداخل والخارج، يضـيع أنينها في العويل المرتفع، تراه لفة بيضاء نحيلة بـين أذرع الرجال القوية، مندفعة إلى خارج الدار، لتغطس في غطـاء النعش الممتد أمام الباب، تتدحرج بين السيقان ممسكة الشاش لتهتف بالصوت الباكي: بالسلامة يا أخويه.

ثم تركن على حائط الردهة منهارة، في دار واسعة فارغة احتفظت أركانها بصريخ النسوة المتشبث.

كانت الضلفتان المفتوحتان تظهران السرير النـائم علـى جنبه، وبقعة الماء، وقطع القماش الأبيض تتناثر حولها نتف القطن المبتل، حدثت نفسها الحزينة قالت: ها قد رحـل زوج المرأتين وأبو العشرة.. الشاطر.. قضى عمره الطويل يجمع ويلملم الدور والطين والطواحين وما خرج إلا بكفنه.. اليـوم تكتحل عينه بلقيا أبيه وأمه، بينما أنا المسكينة أقعد فـي داره المفتوحة الأبواب خائفة ووحيدة.

يوم الثالث:

قعدت بين النسوة لا تنبس، شربت القهوة السادة، وتغـدت بين أبناء أخيها.

الخميس الكبير:

كانت وحدها على الحصير بالردهة، لما عادوا من المضيفة آخر الليل ودخلوا حجرة الكنب، بسمعها القليل عرفت أنهم يتقاسمون مال أبيهم، بعد مصاريف الجنازة والدفن والخميس، جعلوا للذكر مثل حظ الأنثيين، والثمن للأم الكبيرة، وادخروا مبلغًا للأربعين، ولما تذكروا الآية وتذكروها أرادوا ألا يغضبوا الله، فمد كبيرهم يده بورقة حمراء، ظلت في كفها حتى نامت في حجرة أخيها المظلمة غير راضية.

في الأربعين:

قضت النهار بين النسوة لا يكلمها أحد، وحصلت على غدائها قرب آذان المغرب، بينما رأت البنات ـ عقب الظهر ـ يختفين في الحجرة بآخر الدار، ليوزعن فيما بينهن أنصبة اللحم، وسمعتهن يهمسن ويكتمن الضحكات.

في أول الليل حين طرق ابنها الباب، لم يمانع الأولاد ولا البنات، غير أن الأم الكبيرة قالت على سبيل الواجب: دعها بيننا تؤانسنا، والدار دار أولاد أخيها.

لكنها شدت يده ليرفعها على الحمارة السوداء، الضـامرة وعادت.

بعد الرحيل

ذات عصر عاد من السفر، دفع الباب، فوجد حجـرة الأم مفتوحة، وهي نائمة على جنبها، كان الشيش مغلقًا، والظلمة الخفيفة لم تجعله يلم بالمكان، ركـن الحقيبـة بـين الكنبـة والحائط، وقعد فأزت الكنبة من تحته، فانتفضـت الأم علـى الصوت، ربعت وسط السرير، ولمحت شبحه، وضعت كفها على عينها وقالت: من؟

ـ أنا.

ـ وصلت من زمان؟

ـ لسه دلوقت.

وارتمى في حضنها، فأخذته بين يديها وقبلته على خـده، سألته: تتغذى؟

ـ شبعان.. الجماعة فين؟

أزاحت يدها: قافلين على نفسهم أوضتهم.

عرف أنها غاضبة. سأل: خير؟ فيه حاجة؟

ـ أبدا.

ولم ترد أن تحكي له، فخرج يغسل وجهـه مـن حنفيـة الصالة، ويلم شعث شعره، سمع أخوه دفق المـاء، فـوارب

الباب لينظر، كان بالفانلة والسروال، ابتسـم لـه مـن وراء الباب، وأقبل عليه يقبله: إزيك.

ـ الحمد لله.

وخرجت زوجه تجمع شعرها بمنديل أحمر، سلمت عليـه بخجل، وانسحبت إلى حجرتها المسدول على نافذتها قماشـة تمنع نور الشمس، همس أخوه في أذنه:

ـ أمك زعلانة.. وأنا.

ـ بعدين.. بعدين.

وعاد إلى حجرة الأم، فسألته بعتاب: بيقول لك إيه؟

ـ لا.. ولا حاجة.

بعد المغرب، عاد يلبس هدومه ليخرج إلـى الصـحاب، فوجد على ترابيزة الصالة طبق خضار، سأل الأم: فيه طبق طبيخ على الترابيزة؟

ردت بغضب: ارميه لهم.

ـ ليه؟

قالت بغضب حقيقي، وكانت الدموع حائمة فـي عينهـا: تحرم علي لقمته.

ـ آكله أنا.

ـ أنت حر.. ما أنت صاحبه.

ـ دا أخي الشقيق يا أمه.

فتركته وخرجت من الحجرة، وهي تقول: اشبع به.

كان أخوه قد انتهى من ارتداء قميصه وبنطلونه، وخرجا معا.

في الطريق إلى المقهى قال: أمـك لا يرضـيها شـيء. رفضت الأكل معنا، قلت لها، خدي مصاريف، قالـت مـش عايزة، البركة في خير أبوك، واستحلفه بـالنبي أن يفهمهـا، قال له: خدها على قد عقلها، دي ست كبيرة. قال: يا سـيدي أنا خدام.

عاد آخر الليل، وجد الأم مرتكزة على الوسـادة تنتظـر عودته، قال: مساء الخير.

فلم ترد، جلس على الكنبة يخلـع حـذاءه، تنهـدت الأم وسألت: حششت أنت وهو؟

ـ إحنا رجاله يا أمه.

فأمسكته من قميصه قبل أن يفك أزراره، وصاحت: اسمع أنت وأخوك، لازم تشوفوا صرفة.. تدوني كل واحـد مـن مهيته عشرة جنيه، لَتَخُدِني معك.. وبكت.

المنسية

-١-

الباب الغربي مفتوح لاستقبال هـواء البحـر المـنعش، وساعة الغروب ينفذ منه الضوء الأصفر الذي يستطيل حتى يرتمي على الجدار، يتمطى ليخرج من النافذة المطلة علـى السلم.

من الباب الغربي تتدحرج أسماء إلى الفسـحة ـ ينتشـر على أرضها تراب ناعم لا يقضي عليه ماء الطبيخ والغسيل والاستحمام.

وهناك ـ في الفسحة ـ تعطي الطاحونة ظهرها للـدار، تطل نافذتها ـ المسودة القضبان ـ علـى البئـر السـاخنة وحفرة ماسورة العادم، تطلق دخانًا أسود يترنح في الهـواء حتى يدخل عشة الدجاج، فوق السطح.

هي تتدحرج تحت عشة الفرن، بناها جدها مـن طوبـة حمراء وطوبة سوداء، وعرضها بالخوص والجريد، وفرش سقفه بالقش لتحمي الفرن الراقد في الركن كفحل الجـاموس،

أسماء تنقل تراب الفرن الأسود، وتدسه هنـاك فـي فتحـة صندوق الغلال البارك كجمل عجوز؟

وتسحب عود الحطب الجاف، لتنكت في التراب، تنكـت في التراب، بعود الحطب، ويدها صغيرة لينة، لكنها تصـر، وتخرج الطوبة والطوبة حتى تعثر على الدودة، تمسكها بين إصبعيها الصغيرين وتقربها من عينها، تركتهـا وتواصـل الحفر، هي لا تعلم أن الحفرة عميقـة، وبعيـدة الأغـوار، لا تحفري يا أسماء، فها هنا ترقد العظام، لا تحفري.

- ٢ -

وكانت العمات حين أقبلن ودخلن الدار قلن لأبيهـا: نـوم أسماء.

وارب الشيش، وطرد الذباب المكدس على السرير، أخذها في حضنه، وكان قد لقمها البزازة وراح يهدهد على كتفهـا، هدهدة منتظمة حتى ثقلت جفونها ولم ترفع عينهـا السـاهمة عن وجهه، حتى أخذها النوم.

وانطلق صراخ أمها من الخارج، فقامت منتفضة فزعـة باكية، حملها وهو حائر بها.

خرج على الصالة، ورأى انقباضة وجهها الصغير، ويدها ممدودة إلى الحجرة التي ينطلق منها الصراخ، التفت حولهـا العمات، وقلن: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وطلبن أن يخرج بها إلى الفسـحة، حتـى لا يزعجهـا الصراخ، واشتد بكاؤها، واشتدت رغبتها في الـدخول إلـى الحجرة، وراح يجمع اللعب التي قد تلهيها، كان يعرف أنهـا تحب ذلك القفل الأسود الكبير المعلق فـي البـاب الغربـي، فأخذها إليه. ظلت تضرب القفل في خشب الباب، والصرخة لما تشتد وتصل إليها، تتوقف فجأة عـن اللعـب وتنصـت،

وتعبث ملامح وجهها، وسمع أبوها أصوات الرجـال عنـد الطاحونة، يمسك أحدهم الشعلة، والآخر قبض علـى ذيـل الجلباب بأسنانه، قال لنفسـه: سـتدور الطاحونـة، وتلغـي الصوات فلا تسمعه أسماء، ولا يسمعه الجار المتطفل.

أخذها إلى نافذة الطاحونة لترى الرجال قد استماتوا على اليد الحديد يلفونها بقوة، والطارة الكبيرة تسرع في دورانهـا كثور هائج، ومكثت تنظر حتى ملأ الدخان المكان، فقعد بها على الكنبة في الهواء المتجدد إلى أن جاءت العمة مندفعـة تجفف يدها في صدرها، قالت: الحمد لله.. قامت بالسلامة.

سألها: ولد ولا بنت؟

قالت: بنت.

سألها: عاملة إيه؟

قالت: بين الحياة والموت.

وأكدت أنها لن تعيش، وقالت بعد أن لمت الخلقان القديمة: في داهية.. المهم سلامة الكبيرة.

وعاد ينظر إلى أسماء، فيراها مبتسـمة مسـتعدة للعـب مشيرة إلى القفل المعلق على الباب، وضمها بـين ذراعيـه بفرح شديد.

اجتمعت العمات على الكنبة، وقلن: أسماء بالدنيا، وهمسن فيما بينهن: البنت حتة من أسماء، نفس الوش.

قالت واحدة: بعد الشر، أسماء جميلة.

سألهن: البنت صاحية؟

قالت واحدة: عاشت ثلاث ثواني، بعدها شـهقت ثـلاث مرات وماتت. وطلبن من الأب التصرف في دفنهـا، قـال: آخذها وأدفنها في تربتنا بعد الظهر.

وقلن: لا تربة ولا يحزنون، هات حد يحفـر لهـا فـي الحوش.

وخرجت الداية بالميتة، قطعة لحم داكنة مزرقة، أخـذتها إلى الحمام، ومددتها على الطبلية، خلعـت الدايـة جلبابهـا، وبدأت تنزح الماء من الطست، وتتلو الآيات.

وقام الأب ليشتري قطعة القماش الأبيض، وواحـدة مـن العمات صعدت إلى السطح تمسك دجاجة، وواحدة انكفـأت على المنخل تنقي الأرز من الطوب الصغير.

- ٣ -

جاء الرجل بفأسه، رمى جلبابه على الفرن، وعقد ذيل القميص ثم تفل في كفيه، ضرب الأرض ضربات قوية، وأسماء على كتف أبيها ترقب الرجل مستمتعة بمشاهدة جديدة، رمى من الحفرة فردة نعل قديم، وسكينة صدئة، قلبها بين يديه، قال: خسارة.

وركنها بجوار الجلباب، ثم جاب الطوب الأحمر في مقطف، صفه الرجل في الحفرة، ورش عليه الرمل، ثم صفق بيده: هاتوا البنت.

أقبلت بها الداية، تحملها بين يديها، ملفوفة في كفتها، صغيرة بطول ذراع، العمات من خلفها لا يدرين أيحزن أم يفرحن، الحق أن العمات ناقشن الأمر فيما بينهن، وتوصلن إلى أن الميتة لا تستحق الحزن فهن لم يعاشرنها، ثم أن موتها رحمة من الله، فالأم المسكينة لا تقدر على خدمة طفلتين، وأسماء طيلة أيام الحمل ضعيفة هزيلة، وإن شاء الله ستفيق وتسمن بعد رحيل الأخرى.

وقف الجميع حول الحفرة الصغيرة، ونطقت واحدة فجأة كأنها نسيت أمرا.

ـ حنسمي البنت إيه؟ سـأل الأب: لازم؟ قـال الرجـل: لازم.

ردت الداية سـاخطة: ولا نسـمي ولا حاجـة، واحنـا حنلحدها.

قال الرجل المؤمن الحريص على قدسـية المـوت: لازم نسميها.. ونقوم بالواجب.

قال الأب: نعمل اللي علينا، قالت الداية: نسميها المنسية.

وارتاح الجميع للتسمية، ومد الرجل يده إلى اللفة بحرص، ورقد على ساقه، وحطها بأمان جهة القبلة، قـرأت العمـات الفاتحة، ثم استدار الرجل ليهيل التراب مـن كـل جانـب، فهرعت العمات إلى الداخل يصحن وينفضن جلابيبهن مـن الغبار، وظل الأب واقفًا بينما أسماء متشبثة به ناسية العـالم من حولها.

بقعة دم

صممت على الرجوع بعد ما سمعت بنزول الجيش إلى الشوارع، وبعد ما وقع تحت قدمي شاب غرق الدم قميصه الأبيض، رفعته مع الأولاد على الأكتاف، وسرنا صائحين في الشارع، فبرزت وجوه من الشرفات، والنسوة رحن يشلشلن بأيديهن ويصوتن ويلطمن الخدود، لما تهدلت يداه، وسكت جسمه الذي كان يرفرف، مددناه على جنب فوق الرصيف. لأول مرة في حياتي أرى إنسانًا مقتولاً، بحثت عن صاحبي الذي أسكن معه، فلم أجده، وفي الشارع حين كنت عائدا رأيت جماعة ملتفة حول مذياع يقول نسرة سألتهم: فيه إيه؟ قالوا: فرضوا حظر التجول.

وسرت بشعري المنكوش واضعا عصاي تحت إبطي، أدوس الأسفلت متعبا وأشد جزعي بالعافية، نظرت إلى حذائي، فوجدت أصابع القدم بارزة منه. وفي الشارع الجانبي المفتوح على الميدان رأيت عربة جيش كبيرة نائمة على جنبها، والنار تنهش في العجل، ورائحة الكاوتش المحروق تملأ المكان، وكان الميدان فارغًا إلا من العسكر المرتدين المعاطف السوداء، كانوا يضربون بعصيهم كل من يحاول

المرور، ورأيت الطوب مبعثرا في كل مكـان، وإعلانـات النيون البيضاء، مهشمة وزجاجها متجمع أسفل العواميد.

ركنت العصا بحذر جنب باب دكان مقفل. وسرت كـأني لا أراهم، وأسرع عسكري نحوي وخبطني علـى فخـذي، وقال: ارجع. قلت له: أنا مروح. قال لي أدخل من الشـارع التاني.

كانت الحارة زحمة بوجوه تتوقع الشر، والناس يتحـدثون بصوت عال، وعلى المقاهي تجمعوا ينصتون إلى المـذياع، وكل واحد منهم ينسج من خياله حكاية.

دخلت شارعنا، فوجدت إبراهيم الجزمجـي واقفًـا أمـام جماعة كبيرة يحكي لهم بكل أعصابه مـا رآه عنـد قصـر العيني، انتبهوا إلي، ومن مظهري عرفوا أني كنت هنـاك، وصاحوا في صوت واحد: هيه.. هيه.

وساروا ورائي يصفقون: ورأيتها في الشرفة واقفة تعض أصابعها بقلق، لما رأتني اختفت لتفتح الباب.

قلت لنفسي: حتسألني عن جوزها.

هي زوجة صاحبي الذي تركته هناك، لا أمي ولا أختـي لتقلق من أجلي، ثم أننا متخاصمين منذ يومين، هـي تعمـل

موظفة، وأنا وزوجها ما زلنا طلبة، ودائما تعيرنا، وتقـول: ما انتوش فالحين، ودائما تتشاجر معه، وتترك لـه الشـقة، وترمي له ابنه الرضيع، وتذهب على البلد تشـكوه لأهلـه، وأيام تبدي لي الكراهية، وتحث زوجهـا ليطردنـي، وأيـام تصير كما قطعة الحرير.

على السلم وجدتها بانتظاري، وكنت مجهدا وكأنني أرفـع حملاً ثقيلاً أخذتني من يدي، شعرت بالراحـة تسـري فـي عروقي ووقفت في الصالة راكنًا ظهري على الحائط وهـي تمسح وجهي بالفوطة: وقالت: كده ما يـنفعش، أنـت تقلـع هدومك عشان تتشطف، قلت لها: مقدرش لأنـي مضـروب بالرش في ضهري، فأخذتني إلى حجرتي، ووقفت خلفي تشد جاكتتي الكاروهات وأنا مستسلم لها تماما، وصرخت: فيـه بقعة دم على أكتافك. قلت لها: شلنا واحد اتقتل برصاصة.

وبدأت تفك أزرار قميصي بأصابع خائفة، وقالت: ناقص البنطلون، ابتسمت وقلت لها: لا.. أنا حاقدر. لكنها لم تخرج من الحجرة لتغلق من خلفها الباب كالعـادة، وتجـرأت أنـا فسحبت البنطلون بيد واحدة، فالأخرى كانـت تسـند علـى الحائط، وهي كانت جالسة أمـامي علـى حافـة السـرير،

لا أشعر بالخجل، ولا هي أيضا تبدو خجلى، وسحبت من يدي البيجامة وبدأت تلبسني، وتمددت على السرير مهدما، بعد فترة وجدتها قد أعدت الطعام على الترابيزة، وتحت السرير وضعت إناء به ماء ساخن. وضعت فيها قدمي، وجلست أمامي تدلكها، وكنت مخدرا من التعب وسألت نفسي مندهشًا: معقول؟

رفعت وجهها بأطراف أصابعي، ونظرت إلى عينيها المغمضتين، وقلت لها: أنت عظيمة. قالت: مصطفى من ساعة ما نزل ما رجعش. قلت أطمئنها: ما تخافيش عليه.

بعد ما أكلنا وشربنا الشاي، جلست على السرير في مواجهتي ترضع ابنها الذي كان ملتفًا بأقماطه، وبعدما التأم جسمي واستراح، بدأت أحكي لها كل ما رأيت.

مكان للنوم

قال لي صاحبي ساكن المدينة: أسال لك عم أحمد بتاع الشاي. وتركنا الميدان المزدحم بالناس والعربات ودخلنا شارعا على ناصيته بائع الكفتة الواقف وراء الأسياخ يهب بمروحته على النار، فيملأ الحي بالدخان، وكان عم أحمد على الطرف الآخر واقفًا على طوبة كبيرة يكبس وابور الجاز الذي سود بدخانه كلمة مكتوبة بخط غليط فوق الكشك.

قلنا: سلام عليكم.

والتفت بوجهه البشوش الأسمر، ثم نزل عن الطوبة يمسح يده بكهنة قدامه: نهاره أبيض. وسلم على صاحبي بحرارة وود، ومسح لنا الكرويته المركونة تحت حائط الجامع، لما شمت أنفي الرائحة الكريهة، تلفت حولي، رأيت الشبابيك الصغيرة المنسوج عليها عنكبوت قديم، والجدار الراشح حتى نصفه، عرفت أننا نقعد أمام حائط الميضة.

وقال عم أحمد: وشك وإلا القمر.

ورد صاحبي: مشاغل يا عم أحمد.

وطلع على الطوبة، غرف من البستلة كوز ماء، دلقه في البراد، وكبس الوابور مرة أخرى، ورحت تأمل الشارع،

والبنات الجميلات، والعيال الذين يعفرون المكان بلعب الكرة، والميدان خارج الشارع يهدر بالعربات والزمـامير، وبـدت زاوية كبيرة من مئذنة الجامع المطل على الميدان.

قال صاحبي: الأستاذ كان زميلي في الجامعة.

بص لي عم أحمد وقال: يا مرحبا.

وقال صاحبي: من الشرقية.

صب الشاي في كوبين، ومسحهما بالكهنة، ولما نـاولني الكوب قال لي: أجدع ناس.

وتكلم صاحبي في الموضوع، وعرفه بأنني أبحـث عـن غرفة أقضي فيها مدة التجنيد، وعرفه بأنني سـكنت بـالحي وراء الجامع الكبير، وتركت السكن حين أنهيـت الدراسـة والآن أنا محتاج لغرفة، وبالغ صاحبي في الموضوع، وقـال إنني ابن ناس ومن الأعيان في بلادنـا، ولا أدري إن كـان الرجل اقتنع بي أم لا، لأنه سكت حتى رجـع مـن دكـان العجلاتي الذي يركن دراجاته على الرصيف المقابل، أحضر أكوابا فارغة، رجها في ماء الدلو، وقال لصاحبي: بس خليل هو اللي يعرف الحاجات دي.

وسأله صاحبي: وفين خليل دلوقت؟

قال: تلاقيه في الجامع.

وصحبنا لندخل من باب الميضة، ورأيت الرجال يقعدون على الحصير وآخرين يقفون للصلاة، ورجال يتوضأون فوق أسمنت الميضة، وصاح عم أحمد بصوت تردد صـداه فـي الجامع: يا خليل.

وسمعنا خليل يرد من المراحيض: أيوه يا أحمد، قال لـه: ناس هنا عايزينك. وخرج من الباب الذي انسحبت من فتحته جاكتة رمادي، كان يضع على رأسه طاقيـة مـن القمـاش الأبيض ووجهه أصفر بلون الكركم، وكانت أصابعه تقطـر الماء على البلاط المتسخ.

رآنا فاتجه إلينا يخبط في الأرض بقبقاب خشب مبلـول، سلمنا عليه من وسط ذراعه وقال بصوته النـاعم مخفضـا وجهه على الأرض: أهلاً يا أساتذة. وقال عم أحمـد بعـدما أشار إلي: الأستاذ غريب وعايز تدور له على أوضه. أدخل ذراعه في الجاكتة. ولما أراد أن يدخل الذراع الآخر تاه منه، دار حول نفسه، ضبط الجاكتة على أكتافه، ثم أخرج منـديلاً كبيرا مكرمشًا ليمسح به يده، جفف وجهه وقفاه، وتركه هناك

تحت الياقة وقال: أنا خدام.. بس المشوار بجنيه. قلت: مفيش مانع. قال: عندي أوضة نشوفها ونرجع قبل آذان العصر.

وسرنا في الشارع الطويل، فوق شريط الترام الذي يلمـع في ضوء الشمس، وصلنا مقام الشيخ المدهون بلون أصـفر، وبخطوط بنية عريضة، وقف خليل على شباكه، وفرد كفيـه وقرأ الفاتحة، ووقفت خلفه مع صـاحبي، ورأيـت الشـاهد المكسو بالحرير الأخضر تنتصب حولـه شـموع طويلـة، ورأيت برايز الفضة المتناثرة فوق ظهره وعلى رأسه الكبير الملفوفة بعمة حمراء.

ودخلنا الشارع الضيق بالبيوت الصغيرة، كـان بـداخلها نسوة قاعدات، وعلى بلكوناتها الخشب المتشابكة غسيل يقطر الماء على الماشيين، وخرجنا إلى الوسعاية، وسطها شـاهد وحيد عليه لوحة رخام وكتابة سوداء ودجاج ينـبش جريـدة ناشفة، كانت الوسعاية مرشوشـة بالمـاء، وهنـاك علـى المصطبة رجال يدخنون الجوزة، وولد نحيف بشعر منكوش، كان يرص لهم الحجارة، ويملأ الصفيحة الصدئة بالحجـارة الفارغة، وبعيدا عنهم نام الرجل العجوز الذي يركن عصـاه ومدد ساقيه المربوطتين بقماشة، كانت المعزة تنسل فيهمـا،

وهو لا يشعر تاركًا نفسه للشمس المتسـلطة علـى جسـمه المخدر، وإلى جواره فتاة تغسل مواعين، ثوبها مسحوب عن فخذها الأبيض وقطعة كبيرة من سروالها تبدو على ناحيـة، لم أستطع أن أرفع عيني حتى طلعت المرأة السمينة المرتدية الجلباب الملون من الحجرة المظلمة، كانت تـربط رقبتهـا بمنديل، وعلى رأسها إشارب أحمـر يتـدلى منـه الترتـر وخصلات من شعرها الأكرت وحلق كبير يهتز على وجهها القمحي، لما رأتنا مسحت يدها وركنت ظهرها على البـاب، اقترب خليل منها، ووقفنا على جنب، ضربته علـى أكتافـه وقالت: يا واد سايب الجامع وبتلف؟ قال لها وهو ينظر إلـى الأرض: أكل العيش يا أم وردة، ومال على أذنهـا وكلمهـا بصوت واطئ، دفعته بيدها الكبيرة، وقالت: أبعد يـا منيـل، وبص إلينا بخجل، ثم مال بوجهه إلـى الأرض.. وتركتـه واقفًا مكانه، واتجهت إلينا ولمحت صدرها الممتلـئ، كـان يطفح على الفتحة البيضاء المحدد بوساخة وسواد، وسـألت: مين اللي عايز يسكن؟ قلت لها: أنا، قالت: لو قربت شـويه كان عندي أوضه خدها أفندي زي حالاتك، قـال صـاحبي:

معلهش.. مفيش نصيب. قالت: خليل يعـرف واحـد تـاني ياخدكم عليه.

شد خليل المنديل من خلف القفا، ومسح به وجهه، وقـال: أنا واخدهم على عبده، ودخلنا الشارع الضيق الممتـد مـن الوسعاية، مررنا على شواهد كثيرة مصفوفة بطول الشارع، وانشغلت بقراءة الأسماء المكتوبة وتواريخ الموت، وشعرت بكآبة ووحشة، وظلت عالقة بذهني آية:

"يا أيتها النفس المطمئنة"

المكتوبة على كل رخامة، ولما خرجنا إلى النور فرحـت بالزحمة والناس الذين يسعون في كل ناحية، وماتت الوحشة داخلي، عبرنا الشارع ومشينا في ظـل العمـارات وقلـت لصاحبي: نشرب عصير.

وقفنا على باب الدكان، وانتعشت بالرطوبة التـي تهـل علينا من الداخل، بسمل خليل حين مد يده إلى الكوب فـوق المشمع المبلول، شربه مرة واحدة، وعلقت على أنفه رغاوي مسحها بمنديله، ثم أعاده إلى قفاه.

وكان منكفئًا على الرصيف وراء العدة، صندوقه مرقـع بمائة خشبة، عليه الحديدة المثنية كأنها قـدم مقلوبـة وإلـى

جواره كيس قديم مداوق منـه أحذيـة وشباشـب حريمـي وصنادل عيال، قال خليل: خلي عنه.

حط كفه على جبهته وضيق عينيه، واستمر مـدة حتـى سحب المسامير من فمه الفارغ من الأسنان وقال: عايز إيـه يا خليل؟ قال له: إزيك يا عم عبده، لم يرد عليه، انشغل بدق مسمار في حذاء معلق على الحديدة المثنية، وانحنـى عليـه خليل وأحاط كتفه بذراعه، وهمس إليه بصـوت مـنخفض بعدها التفت إليه الرجل، وضيق عينيه وكان وجهه الجـاف بأصداغ ممصوصة له شارب عليه صفرة الـدخان، كانـت تلمع فوقه قطرات ماء، وسأل: مين اللي عايز الأوضة؟

اقتربت منه، وربت بيدي على صـدري، وقلـت: أنـا. سألني: بتشتغل إيه؟ قلت له: لسه متخرج ورايح الجيش.

قال: الأوضة اللـي عنـدي مقـدم ميتـين، وإيجارهـا خمستاشر. وسأله صاحبي. فين هي؟ مسح شـاربه بظـاهر الكف ورشف من شاي الكوب المركون تحت قدمه، وقـال: شارعين بعد الشارع اللي قدامك. قال خليل: فوق السـطح، مستقلة بنفسها، وبحمام جواها، قلت: نشوفها.

رفع الرجل إصبعه أمام وجهه وقال: خمسة جنيه قبل ما أقوم، نظرت إلى صاحبي بخيبة أمل، وقلت له: بينا نرجع مفيش فايدة، وقال خليل: بعد العصر أشوف لك مكان تاني.

وعدنا لنقعد على الكرويتة تحت حائط الميضة، وعم أحمد قدم لنا كوبين من الشاي الثقيل، وكلمني: يا ابني أنا حسألك.

وسمعنا صوت خليل من الداخل يؤذن العصر، كان صوته رخوا ليس بصوت الرجل الناضج، ومال صاحبي على أذني وقال: سامع صوت خليل؟ قلت له: سامعه، وضحك وقال لعم أحمد: الظاهر خليل فيه لله، نتر ذراعه وصعد على الطوبة وضحك ضحكة كبيرة أظهرت سنتين صفراويتين بينهما فراغ وقال: ربنا يسهل لخلقه.

وبدأت الشمس تختفي وراء مئذنة جامع الميدان، ورمت ظلاً طويلاً دخل علينا الحارة وأمسك عم أحمد الدلو ونثر ماءه على الأرض، وارتفع صوت مذياع بائع الكفتة، وفجأة رأيت "فهمي" يدخل الشارع، يحمل كتابين تحت إبطه، وحقيبته بيده، مر من أمامنا ولم يرني، فنهضت لأنادي عليه: فهمي. نظر إلي بدهشة، وقال: مش معقول.

ركن الكتابين على الكرويتة، وارتمى في حضني، قبلني، وارتاح دمي في عروقي، ونسيت هم المشاوير، أخذته مـن يده، وكان عم أحمد واقفًا على الطوبة يبص علينا، قلت لـه: اعمل شاي مضبوط. قال: على عيني، وسألني فهمي: بتعمل إيه هنا؟ قلت له ويده لم تزل نائمة في كفي: أنت اللي بتعمل إيه؟ قال: أنا ساكن هنا ورا الجامع.

قلت له: أنا أعرف أنك كنت فـي الجيـزة. قـال لـي: ما خلتش مكان، وكنت نسيت أعرفه على صاحبي، قام مـرة أخرى وسلم عليه، وقال له: لا مؤاخذة، وقلـت لصـاحبي: فهمي زميل كلية بس قبلنا بدفعتين، وقال صاحبي: شفته كتير في الجامعة لما كان يخطـب. تنهـد فهمـي وقـال: أيـام ما تتعوضش.

وقصصت عليه الحكاية، وكيف أننا من الصبح نبحث عن حجرة، وعاتبني لأن لم أذهب إليه، وقلت له: أنا ما اعرفش، وقال لي إن حجرته تحت أمري، لأعيش فيها كمـا أريـد، وقمنا في التو، وتركنا خليل ـ الذي أنهى صلاته ـ قاعـدا على الكرويتة ينتظر أن أطلب له شايا، واعتـذر صـاحبي وقال: معلهش ما اقدرش أطلع معاكم عندي مشوار، وأشـار

فهمي إلى البيت وقال له: لما تحب تزورنا تطلع السلم لغاية ما سقف السما يخبط دماغك، تبص يمينك تلاقي أوضتي.

وضحكنا ثم سلم علينا وخرج إلى الميدان، ودخلنا الشارع الآخر لنتجه إلى البيت المجاور للجامع.

كان بابه ضخما كباب الوسية، وبعد ما عبرنا طرقة مظلمة، دخلنا في حوش واسع مفتوحة عليه أبواب ونوافذ بدت منها دوائر سرير وكنب مفروش وتليفزيونات أمامها ناس يتفرجون، دسنا الزبالة المبعثرة على أول السلم، وهش فهمي القطط الملومة عليها، وصعدنا سلما ضيقًا ومظلما درجاته متآكلة من وسطها وكان جيشًا غازيا قد مر عليها، على السطح، كان النور الخفيف ما يزال يعم الدنيا، وصارت ضجة الميدان بعيدة.. والسيارات ظهرت أمامنا من فتحة السور، وأشار فهمي وقال: هي دي أوضتي.

سألته: لوحدك؟ قال: معي صديق من البلد وهو دلوقت في أجازة، وأخرج مفتاحا صغيرا، أدخله في القفل المعلق على الرزة، وشعرت أن الباب ضعيف لا يحمي شيئًا داخله، والحجرة مبنية بألواح خشب ومسقوفة بخوص ويتراكم على

سطحها كراتين وأقفاص، ومن ناحية برزت مدخنة الحـاتي الذي يفتح على الميدان تعفر السطح برائحة تغيظ.

في الصالة الصغيرة المعتمة رأيت وابور الجـاز يتنـاثر حوله عيدان الكبريت، وأواني قعرها مسودا ومركونة عليها أغطيتها، وترابيزة خضراء عليها أطباق بلاستيك، دفع فهمي باب الحجرة برجله، فاهتزت الجدران وانهال علـى رأسـي تراب من السطح، وكان بها سرير مراتبه غاطسة إلى الداخل وسرير آخر عليه ألواح خشب بصفوف عليها كتب والحـذاء كان باديا أسفل الألواح، وكنبة فرشها ممزق، صـعد فهمـي عليها ورفع ترباس النافذة، وظهر النور مرة أخرى، وسمعنا ضجة الميدان دائرة كطاحونة قعدت على الكنبـة، وقـرأت كلمة مكتوبة بطباشير على الحائط جهة البـاب وابتسـمت، وتأملني فهمي ثم نظر إلى الكلمة المكتوبـة وقـال: عشـان ما انساش، وعدت بالذاكرة لأيام الدراسة، ورأيت في ضبابها فهمي عند سلم القاعة فوق كتف الزميل جامعا كفيـه علـى فمه، وعروق رقبته كانت منفوخة عن آخرها وهـو منفعـل ومتوتر، والطلبة يسمعون ويتناقشون وأنـا بيـنهم مشـغول بجراءته، ولم أك أفهم الكثير من كلامه، وكنت أسأل نفسي:

معقول؟ طالب نحيل لابس قميص ألوانه باهتة وجزمته نعلها متآكل عنده الجرأة يهاجم الحكومة برئيسها؟

وكان كلامه يسري في دمي، وكنت أحس أن عقلي يطقطق، ينهض من ركدته ليتمطى ويصحصح، وأقول لنفسي: دا أنا جاي من البلد جاهل. وكنت حين أتخيل نفسي مكان فهمي، أرتعش، وتنهار ساقي من تحتي، وأقول: خليك هنا أحسن.. أنت مش فاهم.

كنت أتمنى لو يصير صديقًا لي، لما عرفته وجدته طيبا وابن حلال وصاحب صاحبه.

خلع فهمي قميصه، وفرده على السلك المربوط وسط الحجرة، وقال لي: قم اغسل وشك، قلت له: فين؟ أخرج يده من الباب وقال: هناك فيه زير وحنفية.

ولما رجعت وجدته يخرج لفات من حقيبته، فردها على الجريدة، وشد "حلة" من تحت السرير بها خبز، وقعدنا لنأكل وكلمني، وحكى حكايتهم حين أتوا هنا للقبض عليه، ستة ضباط أصغرهم بدبورتين، حاصروا السطح وأمروا مخبرين بالوقوف على كل شباك والضابط الكبير دفع الباب برجله، ولم يجد غير صديقه الذي يشاركه الحجرة غاطسا في قعر

السرير مستغرقًا في سابع نومة، وسأله: زميلك فين؟ قال له: مسافر، فتحوا الحقائب وأكياس المراتب، وكسروا دولاب الخشب، أخذوا الكتب، وحين وجدوا صورة لامرأة عارية، تفلوا في الهواء، وقالوا: وكمان له في النسوان. وقطعوها، ودسها واحد منهم في عب صديق فهمي، ولما تمرد على ذلك، ضربوه على أصداغه، وربطوا عينيه بمنديل، وسحبوه معهم، وهناك أرادوا إجباره على الكلام، وفي النهاية ضغطوا عليه ليوقع على ورقة، وقالوا له: دا إقرار لما تعرف عنه حاجة تبلغنا.

وقص علي حكايات أخرى، وشربنا الشاي مرتين، ودخنا سجائر علبته السوبر، ثم مددنا في قعر السرير، وفتح كتابا وقرأ لي، وأنا أسمع حتى سقطت في النوم.

عباءة الليل

كنت أنا وهي والليل في مدينة كبيرة نائمة، بعد أن فارقنا الصديق سكران بخمر حانتين، وقف يودعنا ليلحـق بـآخر قطار، ولم يدعنا معه، فهو يسكن الغرفة الضيقة التي لا تتسع إلا له ولزوجته وبنتيه.

قلنا لليل: يا ليل هل تأوينا؟

قال الليل: أنا أكتم سر العشاق والسراق، وأسـتر فرشـة الزوجين، وأداري نومة الفقير.

قلنا: فنحن عاشقان غريبان، ليست هذه مدينتنا، غادرنـا بلادنا لأنها تترصد للمحبين وتفضح سر القلوب.

قال: شقا طريقكما وأنا معكما أسمع وأرى.

وكان طريقنا طويلاً وبعيدا، قلت: آخذها إلى غرفتي التي منحها لي صديق.. ولأجرب معها الحب، ولأكون مثل كـل الأحبة، الذين قرأت عنهم، ورأيتهم على الشاشـة يتـأبطون الأذرع منطلقين في خفة يرمي الهواء شعرهما إلى الـوراء، وحولهما تطير النسمة المفـردة، وينمـو الزهـر المبتسـم، وتزقزق لهم بلابل لا تراها العين، وخفت لأن صديقي حـين أسكنني قال: لا تصحب إلى غرفتك امرأة، فأنا أخاف الناس،

ولا تأتي آخر الليل سكران، فأنا لا أحب الخمر التي حرمهـا الله.

تمنيت لو أجد البوابة الحديد مفتوحة، سنمرق منها خفية، وأدير في ثقب الباب مفتاحي الكتوم ولا أشعل مصباحا ففـي الظلمة سأري على نور وجهها، ولا أرفع صـوتًا، فيكفينـا همس القلوب.

هناك وجدت المصباح يرش على البوابة نوره المتشـبث كبرص، وسقطت خيالاتنا على قضبان الحديـد المربوطـة بالسلسلة الغليظة، نظرت إلى أعلى، ولـم أقـدر أن أرفـع صوتي لأنادي عليه، وغاظني انغلاق نافذتي القريبة، نظرت إلى وجهها الشارد وقلت: لا تحزني.

ـ طالما أنا معك لا يهم.

والليل كان قابعا هناك في الأرض الخلاء، يكتم ضـحكة، قلت: يا ليل.

قال: أنا لا أغلق البوابات، فأرضي رحبة، ويدي بعرض السماء.

قلنا: ولكننا نريد جدارا وفراشًا.

قال: أنا لا أملك غير عباءتي السوداء.

قلت لها: فلنذهب إلى صديق قريب من هنا، ينام النهـار ويسهر الليل.

قالت: كيف ننام عند غريب؟

أحطتها بذراعي، وقلت: لا تبالي.. فقلبه مفتوح.

كان النور يخرج مع الموسيقى من شيش نافذته المغلقـة، مددت يدي على آخرها، وخبطت طرف النافذة، فارتجفـت الضلفتان، وتردد صوت الطرقات كأنها في فـراغ، وكانـت هي واقفة عند البوابة ترقب الباب من الداخل، خبطت مـرة أخرى، وناديته باسمه، وفي المرة الثالثة انطفأ النور، وخفت صوت الموسيقى، وانتظرنا، فلم يخرج أحد، قالت: لا فائدة.

وعدنا نعبر بقع الماء بين البيوت المغلقة الأبواب، كانـت في الصمت وفي الضوء القليل شبيهة بشواهد القبور، وألـف عين من وراء النوافذ ترقبنا، وتحبس ضحكات متشفية.

والليل العجوز يسير خلفنا يخب في عباءته، كنـا نسـبقه مسافة، وهو على آخر ظلنا المتعرج مجتهدا في مشية يحاول اللحاق بنا، يرفع العباءة المهترئة من حين لآخر ويلقيها على كتفه فتلم بعثرة لحيته الرمادية.

على أول الشارع الكبير كانت السيارات المجنونة تمـرق مسرعة، سرنا على الرصيف فرحين بالنور الغامر، وإن كان قد جمع باصفراره قليلاً من الوحشة في جانب القلب، خـرج علينا الشرطي فجأة من وراء سور تنتشـر عليـه الأشـجار المتشابكة ظلمة قاتمة كان وجهه مشدودا، وأسـنانه سـوداء بل كل لباسه كان أسود، البيريه والسترة والسروال والنعـل، تقدم نحونا، فكدنا نرجع بظهورنا فارين، حمامتـان سـقطتا بغفلة على خيال مآتة، وكانتا تمنيان نفسيهما بحب وفير فـي أرض خصيبة.

قلنا: نحن أخوان ذاهبان إلى قريب يحتضر.

ونظر خلفنا فرأى الشبح الكهل، فتراجع وقال: لا تفعلاها مرة أخرى.. فإن الدولة تدفع لي راتبي من أجـل أن أمنـع أمثالكما من السير أثناء الليل.

وانطلقنا، في البدء سرنا بجوار السور متلاصقين نخـاف من انقضاض اليد على أقفيتنا وبعد أن سرنا مسافة معقولـة. مشينا متحررين، ولكننا لم نتكلم، فقط نظرنـا إلـى الـوراء لنطمئن، فواجهتنا الابتسامة في الوجه العجوز، والفم المفتوح كطاقة مقبرة مهجورة.

في المقهى المفتوحة على الميدان الواسـع والتـي تظـل ساهرة طول الليل جلسنا على منضدة، طلبنا قهوة تعين على السهر، وتقاوم النوم الذي بدأ يتسرب، أمسكت بكفها البـاردة وقلت: أنا آسف. قالت مبتسمة: أنا سعيدة.

قلت: كنت أود أن.. قالت: وأنا..

ولا أدري إن كانت عرفت مقصدي، فأنا كنت أمني نفسي بليلة ينفتح فيها القلب ويقول لها كل ما طواه تحـت لسـانه المتلعثم، وكنت أريد أن أقول لها كلام العشاق المعتاد، لقـد أحببتك من أول نظرة، جرحتني عيونك، وحين عرفتك قلت هي الفتاة الممنوحة لي من السماء، سـأدفن أحلامـي فـي صدرك وأطوي في صدري أحلامك، وأنني أرى في عينيك مدينتي البهيجة بأضوائها وطيرها المحلق في سماء لا تعرف الغيم ولا تعرف المطر، صحو مقيم وأيدي وشمس رحيمـة لا تغرب.

وفي اللحظة التي أردت تأمل عينيهـا لأتشـجع وأقـول، رأيته على المنضدة البعيدة قابعا تحت مصباحها الـذي ينـز ضوءا بلون السل، كان يهرش جنبه بيـد مقشـوطة الجلـد،

ويبدو كأنه مشغول عنا، ثم رفع لـي عينـه فجـأة، فارتـد بصري، وماتت الكلمات في حلقي.

وكنت أريد أن أقول له: لم نعد بحاجة إليك.. فنحن فـي ونس الناس والمصابيح، ولكنه واصـل الهـرش، وواصـل بحلقته كمن يقول: لقد استعنتما بي وأنا لا أتخلى بسهولة.

قالت: القهوة لم تفعل شيئًا والنوم غلبني.

قلت: اقتربي مني ونامي على كتفي.

ارتاح رأسها على كتفي، وأملت برأسي، وجعلـت الخـد على الخد، ويدها كانت تحت المنضدة في يدي. قلـت فـي أذنها: أحبك.

وحركت شفتيها بخدر هو مزيد من خدر النـوم والحـب الهادئ، وكأنها تردد كلمتي وغفونا، كان نوما جميلاً خاليـا من الأحلام والكوابيس، قامت تفرك عينيها وترجع شـعرها إلى الوراء، وأنا بربشت بجفوني وهالني أن النهار كان يحبو في الميدان يحاول أن يشب على الجـدران العاليـة، ولمـا نظرت إلى المنضدة البعيدة وجدتها فارغة، والكرسي كـان مائلاً عن طرفها، ولكننا لم نسمع شقشقة العصـافير، فقـط رأينا صحوة مدينة كبيرة، تدور فـي شـوارعها سـيارات

مضببة الزجاج، وعربات تجرها الخيل، عليها أقفاص الفاكهة والخضار، وجنود يجرون حول إسطوانة الميـدان، وكـان صوت أحذيتهم الثقيلة، يسمع من موضعنا.